الدكتور عبدالله مصطفى

الحرية الجامعية

قصص من واقع الحياة

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ
١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى

العلماء : يزيدون روائع العلم فلا يزيغون عن منابعه ،
والأساتيذ : يبثون حقائق العلم فلا يحيدون عن مقابعه ،
والتلاميذ : يحبون أزاهر العلم فلا يميلون عن مرابعه ،

إلى هؤلاء و غير هؤلاء جميعا الذين
يحسبون الجامعة منارا للحق و منبرا للصدق و مثابة
لحرية البحث و العقل أهدي هذا الكتاب ؟

مقدمة الكتاب

هذا كتاب يقص عليك أحسن القصص من واقع الحياة. يريك الطائر الحبيب، حمامة الحرية الجامعية، كيف مسخت في مغرب الشمس فصُيّرت العنقاء لها اسم و ليس لها مسمى. ويريك غربان الاستعمار، ذلك الاستخراب الذي نعتوه نعت الاضداد، كيف استطالت مناقيرها من طباع اقوام لها صور الانسان و شراهة المفترسات من الحيوان.

انه يصف لك الحق من العلم أيان تزرع في جنباته الاباطيل فتكتظ حتى تطغى عليه، و أيان تحرف كلماته عن مواضعها حتى تختفي حرائرها الطيبات فتظهر مكانها الجلائب الخبيثات. وانه يصف اللألاء من مشرق الشمس كيف انطبعت على أزاهر الفكر والعقل ألوانا جميلة من العلم و الحكمة و القانون و آداب اللغات، وكيف رفّت على الغبراء أجنحة تحمل الخير والحب والحضارة

والسلام وآداب الحياة.

هو الكتاب يروي لك قصة شرقي عاش في ديار الغرب وجناتها، ودرس في أشهر جامعاتها، واختبر هنالك الاقوام في أعمالها وأفكارها وعاداتها، وذاق ما ذاق من حلو الحياة ومن مراراتها.

وأنت أيتها الشرقية:
وأنت أيها الشرقي:

طالما أعتدتما تستعظمان وتستصغران. فاذا أحببتما وجه الصواب في ما تألفان، وكرهتما شعور الانفس بالنقصان، فاليكما الكتاب وما فيه من قصة وعلم وبيان. فاذا قرأتماه ميزتما الانسان من الغيلان، وأيقنتما انكما ان وعيتما العظيمان. وهل الكتاب إلا عبر ووقائع أحوال قدمت الى الاجيال على صفاح كلم وأقوال.

و الآن ينبغي استجلاب نظر القراء بادئ الرغبة في قراءة الكتاب الى امور متعلقة بالكلم و الاعلام الاجنبية الواردة فيه من حيث هجائها و تهجيها. الاول أنا آثرنا لكتابتها حروف الهجاء العربية على الحروف اللاتينية. و ذلك لسببين: احدهما ان الكلم الاجنبيات الواردات يرجعن الى ثلاث لغات (هي اللاتينية و الانكليزية و الفرنسية) هن فيها متباينات الهجاء مختلفات التهجي. فما كانت القراءة لتنضبط لو أنا أثبتناهن باصول حروفهن الا عند من يعرف اللغات الثلاث - و نحن إنما راعينا في اعداد الكتاب جمهور القراء دون القلة القليلة العارفة جميع هذه اللغات. و السبب الآخر للترجيح هو أن حروف الهجاء العربية في نسقها المتطور المتقن أوفى اشارة و أتم ضبطا لاصوات تلكم الالفاظ الاعجمية من الحروف اللاتينية في هجاء الاخيرتين من اللغات الثلاث المذكورات. و لو كنا نعدّ الكتاب لمن يعرفون الرموز المصنوعة في "علم الصوت" وحدهم لآثرناها إياها لضبط الكلم الاجنبيات. أما و الحال غير

ذلك فان حروف الهجاء العربية قد انفردت هي وحدها بالرجحان .

الامر الثاني أنا راعينا في ألفاظ اللغتين الانكليزية و الفرنسية تهجي كل لفظة في لغتها عند أهلها وفق اصول تجويدها . لكنا اضطررنا، درءا لمحتمل التباس مخل، الى مجانبة الصوت التجويدي في موضعين : أحدهما عند كتابة الكلم الانكليزية المجموعة بحرف "ايس"، هذه التي كتبناها بحرف "السين" العربية دونما التفات الى التغير الطارئ على حرف الجمع الانكليزي و انقلاب صوتها الى صوت مثل حرف "الزاي" العربية؛ و الآخر عند كتابة صوت الراء الفرنسية المنقلب في اللهجة الباريسية الى مثل صوت "الغين" العربي - حيث التزمنا حرف الراء كما هي في هجاء اسم "باريس" دون تهجيه، أي أنا لم نكتبها بحرف الغين العربي الموجود في العربية صوتا و رمزا و غير الموجود في الفرنسية رمزا. و حيثما اقتضى الشأن توخي المطابقة مع الصوت الاصل

أو اظهار مبنى الكلمة تجنبنا هذا الطريق المرسوم، لكن حدوث ذلك جد قليل.

الامر الثالث ما ابتغيناه غالبا في كتابة الكلمات اللاتينية من رعاية تهجيها عند الناطقين باللغة الانكليزية (من المشتغلين بعلوم القانون)، ومن الاقتصار في مراعاة تهجيها عند الناطقين بالفرنسية على كلمات جرى فيها اللسان الانكليزي مجرى اللسان الفرنسي، ولهذا حصل أن كتبنا كلمتين مشتقتين من أصل لاتيني واحد، احداهما وفق تهجيها الانكليزي والاخرى وفق تهجيها الفرنسي المعتاد في اللغتين. فأما التهجي اللاتيني (أصيله ودخيله) فلم نعره التفاتا خاصا، لانه في ألفاظه غير مألوف عند الناطقين بالضاد، ولان من أصيله ما قد ضاع وضاع العلم به في دياجير الجهل الاوروبي إبان عصوره المشهورة بالقرون الوسطى.

وأما المستثنى من الامور الثلاثة الآنف ذكرها فكتب استقينا منها بعض المعلومات

فذكرناها في هوامش بألقابها وأسماء مؤلفيها كما هي في لغاتها مكتوبة بالحروف اللاتينية..

وأيضا يجدر بالذكر هنا أن الفصلين الاخيرين يعرضان تتمات نافعة للقصة الواقعية ينتهي عرض احداثها المثيرة عند انتهاء الفصل الخامس، ولئن كان الفصلان يستميلان القارئ من ساحة الادب القصصي الى ساحة العلم القانوني والنظام الجامعي فانهما لا يخرجانه من بقاع الادب ورياضه المتنوعة أشكالا وألوانا. وكذلك هذا الكتاب فانه قصة وأدب فيه شيء من العلم، وليس تأليفا من العلم فيه شيء من مُلَح الاقاصيص. ثم انها قصة من واقع الحياة كما أسلفنا. فارسلت روايتها وكتابتها على السجية دونما تصنع بصناعة تأليف القصص وابتداعها، ولا تقيد بتزويق المحاورة وافتراض العقدة وما الى هذه مما نعلم من قواعد فن القصة والحكاية والرواية.

هذا، وما بقي ما نتحف به القارئ

في هذه المقدمة الا أن نرجو له الافادة و الاستطابة مما يقرأ ، وأن نسأل اللـه - سبحانه عم نواله - لنا وله المزيد من العلم و الفهم و السداد .

الفصل الاول

الجامعة حرم آمن

هذه رائعة من جوامع الكلم تأخذ بمجامع القلب. غير أن لها قصة و مصدرا و آثارا في النفوس لا يستغني عن الالمام بها ذوو الالباب حتى يتبصر العقل. فلننظر في هذه الاوجه أو الابعاد الثلاثة لرائعتنا الباهرة.

روى لنا غير واحد من الفضلاء المعاصرين أن الحيرة دبت في رؤوس الذين كلفوا بالعمل في تأسيس جامعة بغداد وتدوين قانونها كيف يعبرون عن الحرية الجامعية بنص جامع دال على شتات نواحيها دلالة اجمال و تصريح و اشارة و فحوى؛ وأن الذي اهتدى الى تلك الرائعة من خزائن الادب و القانون قد كان المرحوم الاستاذ منير القاضي، عميد "كلية الحقوق" (كلية القانون) و استاذ مجلة الاحكام العدلية فالقانون المدني العراقي ردحا

من الزمن ، و هو يومئذ وزير المعارف مقبل على انشاء الجامعة بقانون.

وههنا الكلام في المصدر والمرتاد. أيّ منبع هو ذاك الذي استقيت منه هذه الذؤابة الرائقة ؟ وهل المستقي إنما اهتدى عن صدفة منقطعة الاسباب أم عن سابق ارتياد للمنبع وطول اغتراف منه ؟

وقد يعترضنا قبل الجواب راغب في الاستيثاق من الرواية وحصول المبادرة ممن نسبت اليه. فلنجعل من استفهامه هذا مدخلا الى الجواب في أصل ما تساءلنا عنه. ألمهم هنا ليس الشخص لهوية من نسبه ، بل الشخص لهوية من العلم والثقافة تؤهله للاستقاء من مصادرهما حين يعرض له أمر جديد. فهبِ المستقي أنه زيد بن عبيد، أوهبه من سماه لنا الرواة في ما رووا ، أفليس يكفي احدهما رمزا لمستقي الرائعة بخصائص ثقافته وانتمائه الحضاري - وهو كل ما يعنينا هنا. لقد عاصرنا السيد القاضي وتبيّنا منابع علمه

و درايته، وان الذي علمنا من ذلك ليرجح صحة الرواية أصلا كما يجملها رمزا .

إنه - رحمه الله تعالى و أجزل عطاءه - قد كان سيدا عربيا تعلم لغة قومه فقها وعلوما و أدبا. إنه لم يدرس لشهادة عليا في جامعة أوروبية من مغرب الارض أو مشرقها، وما أخاله أتقن لغة غير اسلامية . بيد انه لم يهجر لسانه ليستعيض عنه بلسان قوم آخرين، و لا استحقر ما لاهل حضارته ليستعظم ما لاهل حضارة اخرى. ما كان من اولئك الذين يزعمون انهم عرب وهم يستصغرون اللغة العربية، ويقولون انهم مسلمون و هم يستصغرون الحضارة الاسلامية. وما كان قط من الذين يجهلون ان اللغة العربية تسمي مَن يتقن الغوص في الانهر والبحار "غواصا" وما تسميه "الرجل الضفدع" و " الضفدع البشري"، و لا من الذين لا يميزون بين حَنين الفتى الغريب الى وطنه وبين "حُنين" علَما للبائس صاحب الخفين ، أو للوادي الشهير بموقعته التأريخية في قلب الجزيرة

العربية. فلقد تلقى الادب والقانون من منابعهما الاصل: من مصادر الحضارة الاسلامية.

وأيّ فتى يقرأ الكتاب والسنة والآثار، ويتعلم القانون من "ملتقى الابحر" و"فتح القدير" و"مرشد الحيران"، ويعلّم تلاميذه "مجلة الاحكام العدلية" وإختلاف الفقهاء والمجتهدين في مجال موادها، أيّ فتى ينهل من هذه الينابيع الاسلامية يعجز عن استمداد رائع تليد لمقصد طريف؟ فاذا احببت أن تعرف من أين اقتبس النص الجامع الرائع "الجامعة حرم آمن" (وهو المادة الثالثة من قانون جامعة بغداد الاول) فأقرأ متى شئت قوله تعالى في سورة القصص: "أولم نمكّن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء"، وفي سورة العنكبوت: أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا"، ثم اقرأ في جامعات الحديث قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي نادى به مناديه يوم فتح مكة المكرمة: "من دخل داره واغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن .....".

لقد عرفنا الآن المورد و عرفنا المرتاد يأتينا بنص يجعل مادة في قانون تؤسس به جامعة يتلقى فيها العلم. فما الذي حدا بهم الى النص على الحرية الجامعية في ذلك القانون؟ هذا سؤال ليس للباحث عن جوابه الشافي محيد عن الخوض في شؤون تزدحم فيها الاضداد و يختلط الحق والباطل، فلنمض في قصتنا على هدى وسداد، مستوضحين بادئا الاجواء الفكرية و الاجتماعية التي أحاطت بالجامعة الناشئة - هذه الاجواء التي يصفها لنا الفصل الثاني من الكتاب.

الفصل الثاني

أجواء تأسيس الجامعة

اذا أحببت أن نرسم لك صورة بيانية لاجواء العراق أيام تأسيس جامعتها الام فإليكها في جمل موجزات مبينات .

البلاد : كانت مصائر حكومتها وادارتها في القضايا الكبرى بيد المستعمر البريطاني المستحوذ عليها بنفوذه الاستعماري المستدام في حقيقة الحال بعد سحبه قواته العسكرية التي احتلت العراق للمرة الثانية من البصرة الى جومان إبّان الحرب العظمى الثانية .

وزارة المعارف : كانت مسترسلة على أساليب الادارة ومناهج التعليم الموضوعة في عهد المستشارين البريطانيين الذين لم يكن قد مضى على مبارحة آخرهم الوزارة إلا نحو من عشر سنوات ، والذين ذكرهم الرصافي في

عامتهم بالبيت المشهور من شعره :

المستشار هو الذي شرب الطلا
فعلامَ يا هذا الوزير تعربد ؟!

المدارس العالية : بضع "كليات" متفرقة لا يجمعها جامع من فكر و مقاصد عليا . بيد أنها أعدت للوطن مهنيين نافعين ، أطباء و مدرسين و قانونيين و غيرهم مثلهم. وإن في تلقيب هذه بلفظة "كلية" دلالة لطيفة على ما كان في بواديها من محاكاة و تقليد في غاية الاستيحاش من الاصالة المأمولة عند أبناء وطن ذي حضارة عظيمة سالفة. فاللفظة قد اسيئ استعمالها في معنى غير متلائم ، و ذلك بترجمة ركيكة من لفظة "Faculty" ؛ و الركاكة مردها الى ضحالة العلم بخصائص اللغتين معا المنقول منها و المنقول اليها ، على نحو ما نجد اليوم من "الضفادع البشرية" . هذا ، على أن الفاظ الجامع و الجامعة والدار والمدرسة كانت يومئذ كيومنا هذا مما تزخر به خزائن الادب العربي و العلوم الاسلامية .

الطلبة والمدرسون: أناس من أبناء هذا الوطن تعلموا و قرأوا و هم يعاينون نهب الاجنبي من بلادهم، و يجدون حكوماتهم هياكل تقعد و لا تتنفس و تحاكي ولا تعمل، ويستفيقون بعد لأي على أن حقيقة الاستعمار استخراب و وجه اسمه التسمي بالاضداد. وانه لمن أجل ذلك كله أن الطلبة كانوا يندفعون الى "المظاهرات" يظاهرون بها مطالب بني وطنهم في مضادة المستعمر والحكومات الموالية اياه؛ و أن المدرسين كانوا يناصرونهم بالفعل أو القول أو السكوت و رضا القلب عند العاجزين عما سواه من أوجه النصرة.

المستعمر و الجامعة: سبق أن استتر مستعمر العراق خلف حكومة عراقية، و قاده دهاؤه الى استتار أشد خفاء وراء العلم و الخبرة يسديهما الى العراق متى أراد هو خبراء هم أهل علم و دراية مخلصون - زعموا - لبني آدم لا يعيرون ما عداهما التفاتا. و كان ما وصف باتفاق المناصفة مع شركات النفط الاجنبية المحتكرة قد زاد من نصيب العراق

البخس من ركاز نفطه، فاتجهت الحكومة العراقية الى تنمية اقتصادية وخطة تنمية، واستُقدم لوضع الخطة و رسم منهاجها رجل بريطاني ذو كفاءة نعتته وسائل الاعلام و النشر والتبشير بنعت الخبير العالمي، واستعظمه العراقيون من عرفوه و من لم يعرفوه ، هو "لورد سولتر".

فما ان أتم الخبير وضع منهاجه حتى أصبح كتاب التنمية الاقتصادية المقدس في العراق. و في هذا الكتاب حذر الخبير البريطاني صراحة من مغبّة تحول الجامعة المقترحة إن انشئت الى بؤرة سياسية وسيعة مضرة. وليس يعقل ألا تحسب نصيحة الخبير هذه معبرة عن منحى الدولة المستعمرة انتمى هو اليها عن جدارة و ولاء. فان كان لابد من الانشاء فليس المستعمر بعديم الوسائل لتوجيه نشاط الجامعة وجهة يوائم خافيها مقاصده و يغري باديها بالعلم قاصده.

العراقيون و الجامعة: فاما أبناء الوطن فان جمهرة المتعلمين و أهل العلم منهم قد

أرادوا لوطنهم أن تعمر فيها للعلم جامعة.

و نحا نحوهم الوطنيون من ساستهم، و أهل العلم الداعون الى الجامعة ظهروا صفين مختلفين فهماً متفقين ميلا الى التأسيس. فمنهم الرائي من وطنه بلدا صغيرا متخلفا مغلوبا على أمره في حاضره، كبيرا متقدما عريقا في ماضيه سلفت له في الحضارة أياد بيضاء و مدارس و جامعات منها رفّت أجنحة العلم و الحكمة شرقا و غربا؛ فعندهم الجامعة حبذا أن تنشأ، و أيام بغداد عسى أن تعود الى بغداد. ومنهم الواجد بلده متخلفا وبلاد الحضارة الاوروبية متقدمة و الجامعات فيها تزدهر؛ فآثر اللحاق بأهل الحضارة السائدة واقتفاء آثارهم خطوة وراء خطوة و قدما وراء قدم. فالمصير إذن الى تأسيس جامعة بغداد أمر كاد الاجماع أن ينعقد عليه.

الجامعة المقترحة: ها قد انعقد الاجماع أو يكاد على جامعة، فكيف ينبغي أن تؤسس؟ هل يكتفى فيها بلمّ شمل "الكليات" الموجودة المتناثرة و استحداث كليات اخر لتخريج مزيد

من المهنيين، أم الجامعة ينبغي لها الاشتمال
على دراسات عليا و ابحاث علمية؟ فاذا كان
الرجحان لجواب مثبت للثاني من شقي السؤال
فكيف يتسنى البحث العلمي إذا لم يُجعل الباحث
آمنا حرا في البحث و الرأي؟ و الكليات القائمة،
هذه التي ستصبح من الجامعة، لطالما شهدت
بالامس تلامذتها و احيانا اساتذتها يغدون
عرضة للاعتقال والسجن وما اليهما؛ بل قد
حدث أن أُمرت الشرطة باقتحامها فاقتحمتها
لتمنع حدوث مظاهرة أو تنهي بالقوة إضرابا.
ثم الجامعة، أليس المراد تأسيسها على غرار
جامعات من مغرب الارض؟ فاذا كان فهلّا نظرنا
الى الجامعات الغربية حرة مستقلة هي
للحق و العلم وهما لها على أيّ حال.

تلك قد كانت الافكار السائرة
و الاجواء السائدة إبان تأسيس الجامعة؛ والآن
قد تبينت أنت المدخل منها الى النص على
الحرية الجامعية في قانون التأسيس. و لربما
بدا المدخل المستعرض في هذا الفصل جوابا
تاما لذلك السؤال انتهى اليه الفصل السابق

عما حدا الى النص على الحرية الجامعية.
لكنه جواب لا يستقصي دواعي النزوع كلها يومئذ الى الحرية الجامعية؛ فليس هو بالشافي غليل المتشوق الى معرفة هذه الدواعي، فليستقصها الفصل الثالث التالي.

الفصل الثالث

دواعي الحرية الجامعية

المتفقون في الميل الى عمران جامعة مضوا متفقين أيضا في النزوع الى الحرية الجامعية. بيد أن دواعي النزوع مضين مختلفات . و جملة الخلاف قائم بين ذوي منحيين متباعدين من أهل العلم و المنتمين اليه. منحى نفر موصولي الاسباب بالتليد من ثقافة الوطن وعلومه وحضارته وتأريخه وجدوا الحرية، حرية العقل و الفكر و الابداع، هي الاصل و الاساس عندهم في العلم، و ما وجدوا الحيدة عن هذا الاصل في تأريخهم العلمي الا في بضع حوادث شاذة أحدثتها فتن، فذمّت وازيلت و قطع دابر العلاقة بينها وبين مثاراتها. هؤلاء فقهوا الحرية الجامعية للجامعة الناشئة أمرا من طبيعة الاشياء و متلازماتها كالماء و الهواء، و سنة مسترسلة منسابة من جامعاتهم الاسلامية منذ قرون من الزمان، فلم يُشدهوا لفكرة الحرية الجامعية و لا رأوا فيها

جديدا يضاد أيّ شيء من تأريخ جامعاتهم وعلمائهم يشبه عن قرب أو بعد "محاكم التفتيش" الاوروبية وبطشها في بلدان أوروبا وفي مستعمراتها، بيد أن اصحاب هذا المنحى كانوا قليلين عددا، نفراً كما ذكرنا بادئ القول في شأنهم.

فأما ثاني المنحيين فاليه كان نزوع الاكثرين عددا. القرن هو القرن العشرون، وما مضى مضى، والحضارة الاوروبية هي المثلى، فهي القدوة والامل المبتغى. فدعونا نقتد ونتقدم وبالركب الحضاري نأتم. وجامعاتها فيها الحرية المثلى، وفيها العلم للعلم، والحق للحق، فلا بد لنا في جامعاتنا الناشئة من قبس من تلكم الحرية المثلى. هذه هي زبدة المنحى. لكن فهمها يقتضينا الرجوع الى زمان أقدم من تأريخ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، الى القرن التاسع عشر ومنقلب القرن العشرين.

كلنا يعلم أن العراق في القرن الميلادي التاسع عشر كان جزءاً من الدولة العثمانية المترامية أطرافا شرقا وغربا، وأن

هذه الدولة العظمى قد سبق لها تأريخ طويل من ازاحة الامبراطورية البيزنطية ومن الحكم المباشر في أرجاء وسيعة من القارة الاوروبية حتى مشارف حدود الجمهورية الفرنسية الراهنة، ومن ثَم تأثير بليغ في الاوضاع الدولية حربا وسلما وتجارة واقتصادا؛ وأنها بذلك وبغير ذلك قد كالت الصاع صاعين للاسكندر المكدوني وللرومان وللصليبيين، أولئك الذين سلفت منهم مساءة شرقنا هذا غزوا وفتكا ونهبا؛ وأنها بعدئذ قد أدركتها أزمن الشيخوخة والوهن.

وكلنا يعلم اليوم ما كان قد تم في القرن الميلادي التاسع عشر من تخلص ما تلقب اليوم بالدول الغربية من قرونها الوسطى، واجتيازها مراحل النهضة البادئة، وبلوغها عصر القوة والازدهار الحضاري؛ ومن بروز دول عظمى غربية أو أوروبية الحضارة والانتماء قويت شكيمتها وجنحت الى قهر أمم واستعمار بلاد؛ ومن أطماع تلكم الدول العظمى في أرجاء الدولة العثمانية العجوز، فعملها المجدّ المتواصل على تقطيع أوصالها وتفريق أمتها

أمما تستجهل فتغرى و تمزيق رقعتها اقطارا
و بلدانا تستعمر فتخرّب.

كلنا يعلم ذلك، أو يقرأ أخبار ما نجم عنه في مضمار الحرب من غلب و قتال و في ميدان السياسة من قيل و قال. فأما الوسائل الباطنة المخفية المتستر عليها لمقاصد الهدم و التخريب الاستعماري فقد قلّت العناية باستقصائها و تحليلها و مواصلة نشرها بين الامم في كتب و كراريس ذوات أنماط و أساليب تلائم الاحداث و اليافعين و الشبان و الناهضين و الكهول و المسنين. تعددت الوسائل و تنوعت، و اغتننت خططا و برامج دقيقة متماسكة متتابعة المراحل؛ و اضطلع لها بأعباء التخطيط و التنظيم و التطبيق و التنفيذ رجال و نساء من أمم الاستعمار؛ أكفاء عاملون مخلصون لدولهم و متنوعو الاختصاص و المكانة و العمل. فمن هؤلاء رجال دين و فلسفة و علم و سياسة، و مستشرقون و مبشرون و أطباء و أساتذة جامعات، و ضباط و جواسيس و رحالة و سياح.

و ليس يتسع المكان هنا لعرض تلكم الوسائل المتنوعة، لا تفصيلا و لا ايجازا . فلنكتف باقتضاب صنوف منها في قائمة تسرد اجمالا اشدها فتكا و أدومها أثرا :-

- أ -

"التشكيك و الاضعاف"

١- التشهير بالحضارة الاسلامية على أنها الحضارة تسببت في استحداث الرق (و العبودية) و نشرها من حول الارض، و أن مقوماتها لم تعد تصلح للعصر الحديث .

٢- تفكيك التعاضد الجماعي ببث فكرة أن الشرقيين، و لاسيما المسلمين والعرب منهم، انما هم اناس فرديو النزعة ينأون عن العمل الجماعي المنتظم .

٣- هدم الثقة بالنفس عند الشعوب ببث فكرة أن عوامل المناخ و الطقس هي التي جعلت الشرقيين خاملين، فليس هنالك من حيلة

لتغيير تلكم العوامل و طبائعها ، و لا من أمل في لحاق هؤلاء يوماما بالاوروبيين النابهين الناشطين في جنائهم الباردة .

٤ـ التشهير بعلماء الدين على أنهم متخلفون علما و عقلا ، و أنهم هم السبب في المزيد من تخلف المسلمين شعوبا و دولا و اقطارا . فاتخذت كلمة "عُلما" ذاتها مكانا بارزا للمذمة في بحوث المستشرقين و غير المستشرقين من أساطين الاستعمار .

٥ـ تشكيك المسلمين بجانب الدين خاصة من حضارتهم ، و الايحاء اليهم بأن الديانة الاسلامية هي علة العلل المفضية الى حال تخلفهم و انحطاط شأنهم دولا و شعوبا .

٦ـ عزل القانون الاسلامي عن مجتمع الناس و حياتهم ، ذلك بالاستعاضة عنه تشريعا ، و الحيلولة بينه و بين المحاكم و وزارات الحكومة قضاء و ادارة ، و ابعاده عن المعاهد العالية تدريسا و فقها ، و التشهير به على أنه شريعة

غير ملائمة للعصر الحديث. فحين اختلفت مواقف الدول العظمى في القرن التاسع عشر في ما أثاروه من مسألة التعجيل بتمزيق الدولة العثمانية و القضاء عليها أو تأجيل ذلك آثرت حكومة بريطانيا و "برلمانها" الاعلان عن تاييدها الاستبقاء على تلك الدولة شريطة أن تستعيض هي عن القانون الاسلامي بتشريعات أوروبية المصدر و الطراز. و قد رضخت الحكومة العثمانية المستضعفة لما اشترط عليها و بدأت السير فعلا على درب الاستبدال و الاستعاضة. لكنا لا نريد الخوض في التفصيلات. و ستجد في بعض الفقرات اللاحقة (كالفقرتين الثالثة و الرابعة بعد العشرين) مصداق ما أوجزناه بادئ هذه الفقرة.

٧- طمس اللغة العربية العظيمة وآدابها الرائعة و علومها المتقنة، و من ثم طمس الحضارة العظمى التي ملكت هذه اللغة المتخاطفة المتمازجة مع أخواتها الصغريات من مجموعة اللغات الاسلامية. ذلك بجملة وسائل سيأتي ذكرها أو الاشارة اليها في فقرات لاحقة.

٨- الدعوة الى نبذ العلوم العربية الثلاثة ، النحو و الصرف و العروض، و نبذ تطبيقها في الكتابة و الخطابة و الكلام. والحجة المزعومة هي صعوبتها في التعليم، و حاجة العصر الحديث الى سهولة المأخذ في كل شئ، و وقوع ذلك في لغات اخرى كالانكليزية المستشهد لها في الانتشار بالسهولة و القلة في قواعدها الصرفية و النحوية ، و ليس يخفى على المتقن العالم باللغتين ما في بناء هذه الحجج من سفسطة و زيف. لكنهم أرادوا تقوية المحجة بإراءة لغة سامية هجرت فيها قواعد للاعراب فقالوا : انظروا الى اللغة العبرية الحديثة كيف تخلصت من اعراب اواخر الكلم فمن قواعدها استتباعا. و لقد سمعت هذه القيلة باذني في احدى مدارس جامعة لندن يرددها قبل اكثر من ربع قرن من الزمان انسان عربي أصبح فيما بعد استاذا للادب العربي في الجامعة الام لاحدى الدول العربية و في غيرها من الجامعات العربية.

٩- اشاعة كلمات عربية في غير معانيها ترجمة لكلمات أعجمية من لغات المستعمرين ، هذه

اماتة لكلم عربية أصيلة في معانيها، و تعميم للركاكة و التنافر بين اللفظ و المعنى. فلنتذكر "الرجل الضفدع"، و قد مر علينا آنفا مترجما من " Frogman " الانكليزي، و حالّاً محل كلمة "الغواص" الجميلة - هذه التي هجرتها الصحافة و الاذاعة و استعاضت عنها بتلك الشوهاء المترجمة.

و ان من جملة وسائل الاشاعة المتخذة في هذا المجال شعب الاذاعة بالعربية في دور بثّ المستعمرين؛ و ما اكثرها عددا و أقواها بثا و أقدرها على التضليل و الانتظام! و ان من بين المشيحين المذيعين في تلكم الشعب عربا فيهم القاصر علما بلغة قومه و أدبها و فيهم غير القاصر الآتي بما يريده السادة الذين استخدموه واجبا عليه الاتيان بما يراد كما يراد.

- ب -

"فرّق تسد"

١٠- إثارة الفتن بين الشعوب، و اثارتها بين فئات

شعب واحد، و لاسيما بين ملل الاديان و فيما بين أهل المذاهب الدينية. تلك هي من سياسة فرّق تسد.

١١- تزوير الدين أو اصطناع دين مزوّر أو مذاهب دينية، كما صنع الروس "بالبابية" و الانكليز ثم الامريكيون "بالبهائية".

١٢- دسّ الكراهية بين المسيحيين و بين المسلمين و اضرام نار البغضاء و الفتن بينهم في بلادهم. و ما كانت كارثة الاتراك والارمن الا بعض تلكم الفتن؛ و قد وصف لنا دواعي الاستعمار فيها وصفا بارعا و دقيقا واحد من فضلاء الأرمن، هو الفاضل الراحل الدكتور رئيسيان، طبيب العيون المختص و أحد أطباء العراق الأقدمين في الثلث الاول من القرن الميلادي العشرين.

١٣- محاولة استغلال المواطنين المسيحيين في مشارق وطنهم الذي انجبت فيه العذراء السيد المسيح؛ و استجلاب موالاتهم باسم

الدين للمستعمرين من مغرب الارض .

١٤- الدعوة الى نبذ الفصحى بالاستعاضة عنها باللهجات الدارجة في الاقطار العربية . و المطلعون على ما قيل و ما نشر من أنباء هذه الدعوة مطلعون لا محالة على أن حَمَلة أعلامها قد كان يتقدمهم جهارا مستشرق من قادتهم الحائزين شهرة الاسم و ذيوع الصيت في البلاد العربية مشرقها و مغربها. و لو قدر لهذه الدعوة الخبيثة أن تنجح لماتت اللغة العربية، و هجر القرآن الكريم ، و انقطعت الصلة بالتراث، و انفصمت العرى بين الاقطار العربية انفصاما لا مرجى بعده لرأب صدع و وصال، و لأفضت الحال الى أن تمسي في بغداد لغة و بفاس لغة بينهما من الفرقة ما بين اللغتين الانكليزية و الالمانية، أو الفرنسية و الايطالية. الامة كانت قد ضعفت، و كان من مثقفيها من استكانوا؛ لكن الله -جلّ جلاله و عم نواله - قد حفظ للمستضعفين لغة القرآن: " إنا نحن نزّلنا الذكر و إنا له لحافظون " .

- ج -

"التمويه والتضليل"

١٥- مجانبة الحقائق العلمية و التأريخية المتصلة بانتقال العلوم و المعارف و مقومات الحضارة الاسلامية الى أوروبا و الحضارة الاوروبية، و انكار تلكم الحقائق جملة أو تفصيلا .

١٦- توجيه البحوث العلمية الجامعية وجهة سلب الاصالة عن القانون الاسلامي و فقهائه و نحو ارجاع كل ما أمكن ارجاعه من مقوماته الى تشريعات و امم خالية بزعم أن هذا القانون و اصوله يرتدان اليها اقتباسا أو محاكاة أو تأثرا أو أخذا من موادها دونما اعتراف و امتنان .

١٧- الاستهانة بالشهادات العلمية من المدارس الاسلامية العالية، و حمل وزارات المعارف في الاقطار الاسلامية المستعمرة على عدم الاعتراف بشهادات التأهيل المهني في القانون الاسلامي . فاذا استعصى ذلك لسبب من

قوة المطالبة الوطنية فليكن الاعتراف على اعتبارها أدنى مستوى و أقل تأهيلا من شهادات التأهيل المهني في القوانين و المدارس غير الاسلامية .

١٨- تعظيم مآثر الحضارات الدارسة و تكبير شأنها حتى تبدو كأنها ، على قدمها و اندراس معالمها ، قد كانت ذوات مقومات راجحة على الحضارة الاسلامية التالية زمانا .

١٩- بثّ فكرة التفوق الطبيعي الدائم لسلالة الانسان الابيض على السلالات الاخرى جمعاء - و الانسان الابيض عندهم هو الاوروبي حاضرا أو أصلا . و ليست الحلاقة لتخفى بين ما اقتضب في هذه الفقرة و بين ما مر في الفقرتين "٢ ، ٣" و ما سيأتي في الفقرة "٢٤" .

٢٠- بثّ فكرة ذاهبة الى أن النهضة الاوروبية و حضارة القرن العشرين انما امكنتا و استقامتا بابعاد الدنيا عن الدين و الدين عن الدنيا أو بالانخلاع عن الدين و نبذ مؤسساته . و لما كان البث بالعمل أقوى تأثيرا منه بالقول

كُلِّفَ الدبلوماسيون أحيانا بالتظاهر أمام المسلمين بعزوفهم هم عن شعائرهم الدينية اظهارا لكونهم مدنيين متثقفين متنورين متقدمين ، و ليأتسي بهم الشرقيون اسوة الضعيف بالقوي .

٢١- الاستخفاف بالمحادثة و العظة في الاخلاق الفاضلة و القيم الخلقية و في التناهي عن المنكر ، و الاستخفاف بالموعظة الحسنة على أنها من سمات القرون الوسطى و التخلف الحضاري .

- د -

"الضم و الاحتواء"

٢٢- تفريق القضاء و المحاكم الى مدنية وشرعية ، و حصر ولاية المحاكم الشرعية في بعض قضايا الاحوال الشخصية كالنكاح و الطلاق . و لا يخفى ما لهذا التفريق من الترابط مع ما أوجز في الفقرتين السادسة الآنفة و الرابعة بعد العشرين التالية .

٢٣- احلال قوانين أوروبية أو بريطانية ،

أو قوانين مبنية على هذه ، محل القانون الاسلامي ، و ذلك على صورة لوائح مرتبة في مواد و مبحدة المحتوى عن الشريعة الاسلامية و مصدرة من السلطات التشريعية في البلاد الاسلامية قوانين نافذة في شؤون الناس و أموالهم ، و قد بينا دواعي الاستبدال عند المستعمرين في الفقرة السادسة آنفا .

٢٤- محاولة إضعاف الكنائس المسيحية الشرقية الاصيلة في بلادها ، أو جرّها الى التبعية أو الانقياد لكنائس غربية أو لاولي الامر فيها ما امكن من ذلك .

٢٥- الدعوة الى نبذ حروف الهجاء العربيـة والى كتابة الكلام العربي بالحروف اللاتينيـة . و قد قيل في هذه الدعوة كثير من الاباطيل المكسوة بطلاء من مزاعم العلم جعلتها تنطلي على المقلدين من أبناء أمة مغلوبة . و لعل ألطف ما يوجز به أمر هذه الدعوة نكتة طريفة اشتهرت بين المعنيين بما كان يجري من الامر في "مجمع اللغة العربية" بمصر .

المرحوم لطفي (باشا) السيد كان أبرز الداعين في المجمع الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية. و المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد كان علما خفاقا لدحض هذه الدعوة و كشف جوهر الحق و الباطل في امرها. فلما أخذ النقاش بالرجلين في احدى جلسات المجمع، و انبرى لطفي السيد يبرر استعارة الحروف اللاتينية بمصلحة تعميم اللغة العربية قائلا "أنا عاوز أعممها"، أجابه العقاد "أنت عاوز تبرنطها" - و اللفظة الاخيرة فعل مشتق من "برنيطة" و هي في العامية المصرية اسم للقبّعة الافرنجية. فتأمّل مقابلتها بفعل "أعممها" على سبيل التورية.

٢٦- إبادة لغة الوطن و الاستعاضة عنها بلغة المستعمر الاجنبية عن الشعب الرازح تحت نير الاستعمار. و ذلك باحدى طريقتين. الاولى عزل اللغة الوطنية عن مسالك الحياة الاجتماعية و احلال اللغة الاجنبية محلها قهرا، كما صنع الفرنسيون في الجزائر و المغرب. و الاخرى جعل لغة المستعمر هي الوسيلة للتعليم العالي ما أمكن و طرد اللغة الوطنية، و لاسيما في مجال

العلوم غير الادبية، كما صنع الانكليز في مدارس الطب و الصيدلة بالعراق و مصر و بلدان اخرى .

٢٧- الدعاية بوسائلها الاستعمارية المتعددة لاعلاء شأن "المستشرقين" و توجيه الانظار و الافكار اليهم على اعتبار انهم هم المتفردون في اعتلاء المصاف العليا في العلم بحقائق العلوم و اللغات الاسلامية و تأريخ شعوبها و كل ما يتصل بماضيها و حاضرها. و قد نجحت تلكم الدعاية أيّما نجاح. و ليس يخفى على المتأمل الفطن علاقتها بما اقتضبنا في الفقرات السابقات : ١ - ٤ ، ١١ ، ١٥ - ١٩ .

٢٨- دعاية أعم من تلك و أدق لطرائق البحث و مناهجه في الجامعات الاوروبية ، و لاسيما الكبيرات الرائدات منها كجامعة لندن و جامعة باريس و أمثالهما. و دعاية مردفة اياها لمرتبة "دكتوراه" الممنوحة من تلكم الجامعات - حتى اذا تم لشرقي أن يعود الى الوطن بشهادة منها صار له أن يتبختر في الناس و يرقى المناصب في الحكومات ، دونما التفات أحد الى

مقدار علمه و حقيقة حاله.

٢٩- و دعاية أخرى أبلغ و أفسح من رديفاتها المذكورات. هذه هي المحيطة بالحرية الجامعية على أمثل ما تكون و أوفاها بحق البحث الرصين في العلم و الباحث الطليق في ما يستنتج ويكتشف. .فالحرية الجامعية هي سبب الاسباب في بناء الحضارة. الاوروبية و متانة صرحها و تسامي شأوها و اتساع آفاق العلم فيها و المعرفة اتساعا مشهودا. لقد وصفت الدعاية الحرية الجامعية في مغرب الشمس بأنها لم تدع شأوا لمستبق و لا مرقى لمستنم في نشدان العلم الحق نشدانا مجردا عن نوازع الاستعمار.

هذه هي دواعي الاستعمار و دواهيه.

و ان منها التي يعلمها الشرقيون اليوم فلا يختلفون في وعيها، اذ انكشفت عنها الاغلفة و فُتّحت الاغلاق، فغدت من المسلّمات بعد أن كانت غائبة عن اذهان شعوب ما عهدت في حضارتها الغاربة اتخاذ العلم وسيلة للغش و الكيد و الهدم و التضليل و كل شر يأتيه

كل شيطان رجيم. و ان منها التي لا يزال يغفل عنها الغافلون عن مواضع السم في الدسم، شأنها شأن تلك التي عرفها، و ما عرفها حق معرفتها، اولئك الذين ذكرناهم قبل صفحات من الناحين الى الحرية الجامعية منحى التقليد المفضل في حسبانهم على الاصالة المرجوة عند كل نابه رشيد. نعم، قد كان اولئك غافلين غفلة مطبقة عن حقيقتين في واقع أمر العلم و الجامعات في الحضارة الاوروبية التي نزعوا الى اتباعها نزوع الوطواط المصاب بعطل في بوصلتها الطبيعية الحافظة عن الارتطام بما يعطب أو يميت. الاولى ما اقتضبناه آنفا من استخدام العلم وسيلة للتضليل و الاستعمار و شروره. و الاخرى فقدان الحرية الجامعية في ما لا يخدم الاستعمار و دول الاستعمار.

و نحن ههنا بحاجة الى الانتهاء من درب الاقتضاب الى يفاع الاطناب. فلا بد لنا - كما هو عادة العلم و العلماء و الفقه و الفقهاء في مشرق الشمس - من التماس النتائج تثمرها المقدمات الصحاح، و ابتغاء الحكم

العدل تفيده البيّنة و شواهد واقع الحال .
و الاعتراف سيد البينات ـ كما يقال ـ؛ فلنبدأ في قضية اولى الحقيقتين : استخدام العلم لمقاصد التضليل و الاستعمار ، و لسنا نذهب في هذا الى ماض بعيد ولا الى ماض قريب، بل نجده حاضرا مكتوبا مقروءا في هذا العقد التاسع من القرن الميلادي العشرين : نجده حوارا منشورا بالعربية في جريدة "الجمهورية البغدادية (الصادرة يوم السبت ١٩٨٣/١١/٥) بين مندوب لجريدة "الثورة" (البغدادية أيضا) و بين الدكتور "راينهارد شولز، المفكر الالماني و استاذ الثقافات الشرقية في جامعة ميونيخ".
وهذه نصوص الحوار (بأسئلة من المندوب العراقي و اجوبة من الاستاذ الالماني) تقرأ فيها الاعتراف بالحقائق صريحا واضحا لا مناص منه بعد أن كشف عنها القناع رجال من الشرق زانتهم أصالة الرأي في بهرج الحلم فعافوا الزيف غاشية الإمّعات :-

"سؤال : أعتقد أن الالمان هم أول من اكتشف حضارات الشرق ، و الديوان الشرقي

"د. شولز: لقد ذكرت الحروب الصليبية
و الرحلات البحرية و لا تنسى [هكذا في الجريدة]
أن العرب دحروا في اسبانيا و استولى الاسبان
اثر ذلك على كنوز المعرفة العربية. و اعقب ذلك
تطور كبير في مجال العلوم و الفلسفة و علم
الفلك. الديوان الشرقي كتاب ملئ [هكذا في الجريدة
بدل مليئ] بالشعر و الحكم. و حتى و ان لعب
دورا ففي حلقة صغيرة. الشعر لا يمكن أن
يحرك الحضارات لوحده".

"سؤال: هل تعتقد أن كل حضارة
لا بد أن تسيطر و تهيمن لكي تكون حضارة
حقيقية؟"
"د. شولز: نعم و هذا قانون التأريخ.
و لا يتعلق برغبتي أنا. كل حضارة تطمح
للهيمنة على العالم بأسره. انظر الاغريق و المصريين
القدماء و انتم العرب".

"سؤال: نحن كنا ننشر دينا سماويا".

"د. شولز : لا يهم الاسباب . أنا لا أريد أناقشك في هذه المسألة. أريد فقط أن أقول لك بأن الحضارة، أية حضارة - هي قسوة مادية و فكرية . و لا بد أن تتوسع و تسيطر لتتبث انها قوية و انها حقا قادرة على التأثير في الناس و في المجتمعات".

"سؤال : اذن ليس هناك حوار بين الحضارات ؟"

"د. شولز : هناك فكرة الحوار بين الحضارات و هي فكرة يرددها المثقفون و الكتاب و الشعراء . و لكنها في الواقع ليست موجودة. الحضارات تتصارع و لا تتحاور . هل يمكن أن تتحاور الحضارة الغربية المعاصرة مع الحضارة المصرية مثلا و هي التي فنيت منذ آلاف القرون؟ هل يمكن أن تتحاور الحضارة العربية الاسلامية مع الحضارة الاغريقية ؟ يمكن أن تستفيد حضارة من حضارة اخرى لكنها لا يمكنها أن تقبلها لان قبولها اياها يعني موتها ."

"سؤال : الغرب يدعي الآن أنه سيد

الكون حضاريا، و لكن حضارته تحولت الى قوة رهيبة للتدمير و الحروب و القتل و الذهب؟" [هكذا في الجريدة، و الظاهر أن الكلمة الاخيرة هي "النهب" فتحرفت بخطأ مطبعي].

"د.شولز: هذه هي الوسائل المادية للحضارة. و الحضارة لا تعني الرقة و الادب و الابتسامات. الحضارة عسكر وجيوش و انظمة و اطماع و غير ذلك. و طبعا فان الغرب الآن هو أيضاً ضحية حضارته. وليس فقط الشرق. ان كل حضارة تصل الى قمتها تحطم نفسها و تحطم ما حولها."

"سؤال: الحضارات السابقة لم تكن لها هذه العدوانية و هذه الشراسة".

"د.شولز: هذا عائد لطبيعة كل حضارة و عائد أيضا للتطور التأريخي. هل رأيت في حياتك شيئا يشبه شيئا آخر. حتى الاخ مختلف عن أخيه".

"سؤال : كلامك يبرر ما يقوم به الغرب من جرائم في جميع انحاء العالم .. لبنان .. أفريقيا .. أمريكا اللاتينية . "

"د. شولز : هذا شيئ آخر . نحن نحلل الحضارة فلم تطلب مني موقفا من الاستعمار أو مما يجري في العالم ".

"سؤال : ما هي مميزات الاستشراق الالماني ؟ "

"د. شولز : أنت تعرف أن ألمانيا لم تستعمر العرب مثلما هو الأمر بالنسبة للانكليز و الفرنسيين و الامريكان و طبيعي أن يؤثر كل هذا على سلوكهم تجاه العرب و ايضا على مادة الاستشراق ".

"سؤال : هل تعتقد مثلا أن الالمان ليسوا عنصريين تجاه العرب ؟ "

"د. شولز : هناك ألمان عنصريين. هذا شيئ طبيعي و لكني أردت أن أقول ان

هناك أشياء تنشأ عن العلاقات بين المستعمِر و المستعمَر لا توجد في العلاقة بين الالمان و العرب. و هذا ربما أثر كثيرا على حركة الاستشراق الالماني. فالمستشرقون الالمان لم يكن هدفهم مساعدة المانيا على الهيمنة على العرب مثلما كان الامر بالنسبة لفرنسا و انكلترا. و انما كان هدفهم التعريف بالعرب كأمة و كحضارة و كتأريخ».

«سؤال: أعتقد أنهم أيضا كانوا يريدون استعمال العرب كمادة بحث يرضي رغباتهم كشعب يرى نفسه أرقى من الشعوب الاخرى و يشجعه على التنافس مع الفرنسيين و الانكليز».

«د. شولز: هذا رأيك الخاص. و لكن هناك أمرا لا بد أن تقرّ به و هو أننا لم نقم بتشويهكم كما فعل المستشرقون الاخرون في فرنسا و انكلترا. و أنا بطبيعة الحال أفضل استشراقا يقف عند حدود المعرفة على استشراق تكون أهدافه عسكرية و استعمارية واضحة. ثم لماذا لا تقومون

أنتم بدراسة الاوروبيين و غيرهم ...»

«سؤال: لكن هنالك من يقول بأننا لم نعرف الفلسفة في القديم، نحن امة الشعر.»

«د. شولز: كيف لم تعرفوا الفلسفة في القديم. هذا مضحك. و أنا كنت قرأت نصوصا فلسفية عربية أعتبرها من أعمق و أشمل ما قرأت».

هٰهنا نهاية الحوار و غاية الاعتراف. و نود لو أنه استوعب الحق و لازم الانصاف. بيد أن الاستاذ الالماني جنح الى قومه فبرأ المستشرقين منهم من ذلك الشطط الاوروبي نعرفه في مسار العلم و العقل، و لئن كان هؤلاء في عامتهم قد سلموا من السقوط في الدرك الاسفل هوى اليه رفقاؤهم الانكليز و الفرنسيون و الامريكيون فان في الالمان أيضا من قد حازوا قصب السبق في ميدان خدمة الاستعمار الاوروبي و التفاني فيه

الى حد الحطة المألوفة عندهم جميعا في تشويه الحقائق و تزييف العلم و قصد الضلال. فللاحاطة بمنحى أبرز سبّاق منهم في ذلك كله اقرأ متى شئت الفصل السادس من " الحرية الجامعية " .

فأما الحقيقة الاخرى التي أومأنا اليها قبل بضع صفحات من انعدام الحرية الجامعية في جامعات دول الاستعمار في كل ما لا يخدم الاستعمار، أما هذه الحقيقة فلن نكتفي في الاستدلال اليها بالاعتراف سيد البينات. بل سنمضي نستجلي البراهين عليها من وقائع الدراسة العليا في رائدة من تلكم الجامعات ملأت شهرتها الاسماع و الافكار في الشرق و الغرب. و انه لفي خير الحق و العقل و العلم و الحرية الجامعية الموجودة المفقودة أن نطّلع على وقائع حياة شاب شرقي دفعته الى تلك الجامعة الرائدة شهرتها هي و محبته هو العميقة البليغة للحضارة الاوروبية و كل ما فيها من سبل العلم

و العيش و الحياة. فلقد كان و هو بالشرق مستغربا تمرح هنالك أهواؤه. و في قصته سنجد الحياة صاخبة و الوقائع سارية والحقائق ماثلة و الحرية الجامعية متدافعة بين المعلم و المتعلم. فإليك قصته، و أولها في الفصل التالي من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

مستغرب في الشرق

هَهنا نتسامر بأحاديث شاب فتح عينيه على الحياة في أرباض العراق، ونشاهد معه الألوان تتعاقب على مجتمع الناس، والصور تتداخل في افكارهم ومناحي سلوكهم افرادا و جماعات. فهو اذ وافاه ربيع الوعي والانتباه، و ألقى الى من في دنياه سمعه، ومد الى ما فيها بصره، وجد الناس في وطنه أشتاتا لا تجمعهم جامعة عقيدة و منهج. وجدهم أحزابا متنافرين كل حزب بما لديهم فرحون ولما عند غيرهم كارهون. وألفى النفرة تنساق الى تنابذ شديد بين حزبين تقاسما أكثر المواطنين عددا: حزب "المتنورين" وحزب "غير المتنورين" - على ما لقبّا بادئ ذي بدء.

هذان فريقان كانا يحاكيان - دونما شعور بحال المحاكاة العمياء وضعتها - ما سبق

أن استشرى في عاصمة الدولة العثمانية بين قادة الفكر وضباط الجيش وأهل الحل والعقد، والقوم الذين اتبعوا أولئك أو هؤلاء في منازعهم، من انقسام الى "محافظين" أرادوا الحفاظ على "الدولة العلية العظمى" و "متنورين" جدّوا في نبذ كل ما تقومت به تلك الدولة - حتى الدين والخط العربي الذي عاشت اللغة التركية ذاتها في غلائل حروفه وفنونه. أما فتانا بالعراق فلمّا يبلغ يومئذ منازل النقد الدقيق والتمحيص المتقن في استكناه حقائق الاحوال والاشياء، وان صادف أن مر في قراءة الشعر بمثل قول أمير الشعراء أحمد شوقي :-

"فلا تكونُنّ تركيا الفتاة ولا
تللع العجوز وكونوا تركيا القدم"

بيد أنه ان لم ينقد فقد رأى وان لم ينتقد فقد وعى. وقد سبقت مرآه ووعيه تقلبات كثيرة. الدولة العثمانية سبق أن تقوضت ولفظت انفاسها الاخيرة. وجيوش الدولة البريطانية سبق أن احتلت العراق، فحل قائدها "جنرال مود" في حاضرة بغداد منقذا ومحررا على حد

قوله في ما أعلن .ثم تأسست المملكة العراقية الحديثة وطنا قوامه في الارض بلاد ما بين النهرين وأرجاء من الجزيرة و من سهول كردستان وجباله الشامخة ، و في الشعب اكثريتان قوميتان من العرب فالاكراد ، وفي الحكومة ملك ووزارة ومجلس للاعيان وآخر للنواب كأن جملتها تمثال مصغر للعرش والحكومة و مجلس الامة في المملكة البريطانية المتحدة . غير أن الرصافي الشاعر العراقي قد قال فيها :

"ملك و دستور ومجلس امة

كل عن المعنى الصحيح محرف".

أما صاحبنا فقد دفعته الحياة حدثا تتناوبه في الاسرة وفي المدرسة وفي مجتمع الناس أفكار متباينة و آراء متناقضة ومذاهب متضاربة . والمصدران الظاهران يومئذ لهذه كلها انما هما الطائفتان اللتان أشرنا اليهما آنفا، طائفتي المتنورين واللامتنورين ، على أن هذين اللقبين لم يستقرا على مناشئهما عند منقلب القرن الميلادي التاسع عشر.بل بدأت

ظلال معانيهما تتغير خلال العقود الأُوَل من القرن العشرين . فقد تعرض اللقبان للاستبدال، ثم استعيض عن كل بدل بجديد: فمن متنور ولا متنور ، الى متجدد و سلفي ،ثم الى مثقف و جامد ، ثم الى تقدمي و رجعي ؛ ذلك كله قد استتم قبل انتهاء النصف الاول من القرن العشرين . وليس من غرض هذا الكتاب الخوض في تأريخ تطور هذه الالقاب و دلالاتها ، ولا كل ما اتصل بها من حوادث الدهر . بل نحن انما نتابع صاحبنا لنتبين في هذا الفصل حاله في مصطخب تلكم الاحوال، وفكره في خضم هتيكم الفِكَر المتضاربة .

حدثنا صاحبنا أنه طالما سمع في صغره ، وفي اليوم الواحد أحيانا ، تعليلات متعارضة أو متناقضة لحوادث وقعت في الماضي القريب في التاريخ قرب أول الاسبوع من آخره . ففي عالم التعليم والمدارس أصغى الى المعلمين والمدرسين يشرحون له ولاصنائه كيف أن العثمانيين كانوا شرار الناس ، سفاكي الدماء ، نهبة الاموال ، غصبة الحقوق ، ومصدر كل ما تفشى

في بلادهم من الفقر والمرض والجهل والبلاء؛ وأنهم كانوا أعداء العلم والتعليم، ويقطعون سبل النشر على اللغة العربية وعلومها؛ "تصوروا أن قواعد اللغة العربية كانت تدرس باللغة التركية فيقول المدرس مثلا: "زرب فعل مازي در، أي ضرب فعل ماض"! هذا، ويثور الضحك ضحك السخرية من اولئك "العثمانيين الجهلة اعداء العربية والعلم والكتاب الذين خلّصنا من شرهم الحكم الوطني".

ويعود الفتى آخر النهار الى مسكنه، فيتناول طعامه، ثم يسأل امه عن ابيه، فتجيبه بأن والده في غرفة المكتبة. فيصعد هو السلالم ثم يدخل الغرفة فيسلم على والده المكبّ على كتاب بين يديه. يردّ الوالد السلام رافعا وجهه البشوش الى ابنه، ويطلب منه الجلوس والانتظار بضع دقائق ريثما يصل هو في مطالعة الكتاب الى آخر فقرة مهمة في مسار قراءته. ينتظر الابن؛ وخلال سويعة الانتظار يحدّق في مكتبتهم المنسقة المقسمة في رفوف مبنية داخل جدران الغرفة، والمعمورة بكتب كثيرة ومجلدات ذوات

ألوان . يحس الولد أن نظرته هذه المرة الى المكتبة تختلف عن نظرته اليها المألوفة من قبل؛ ويسائل نفسه : من أين جمع أبي هذه الكتب الكثيرة و قد عاش هو في ظل حكم الجهلة العثمانيين؟ وسرعان ما ينتهي الوالد من مطالعته ، فيدور بينه و بين ولده الحوار التالي :-

الإبن : يا اب ، من أين جمّعت هذه الكتب كلها؟

الأب : بنيّ ، هذه المكتبة حصيلة العمر . اشتريت اكثرها من اسواق الكتب أيام الدراسة ثم طوال أعوام التدريس ؛ وفيها كتب مخطوطة أو مطبوعة ورثتها من والدي ، من جدك - طيب الله روحه وجزاه عنا خيرا - ؛ وفيها كتب اهديت اليّ ، كهذه المجلدات الثلاث الضخام على الرف الثالث . هذه أجزاء كتاب "شرح المواقف" . وهو كتاب جليل في العلوم الفلسفية كان قد أرسل اليّ من "اسطنبول" هدية من السلطان العثماني عندما حزت مرتبة "عليّ الأعلى"

ألوان . يحس الولد أن نظرته هذه المرة الى المكتبة تختلف عن نظرته اليها المألوفة من قبل؛ ويسائل نفسه : من أين جمع أبي هذه الكتب الكثيرة و قد عاش هو في ظل حكم الجهلة العثمانيين؟ وسرعان ما ينتهي الوالد من مطالعته ، فيدور بينه و بين ولده الحوار التالي :-

الإبن : يا اب ، من أين جمّعت هذه الكتب كلها؟

الأب : بنيّ ، هذه المكتبة حصيلة العمر . اشتريت اكثرها من اسواق الكتب أيام الدراسة ثم طوال أعوام التدريس ؛ وفيها كتب مخطوطة أو مطبوعة ورثتها من والدي ، من جدك - طيب الله روحه وجزاه عنا خيرا - ؛ وفيها كتب اهديت اليّ ، كهذه المجلدات الثلاث الضخام على الرف الثالث . هذه أجزاء كتاب "شرح المواقف" . وهو كتاب جليل في العلوم الفلسفية كان قد أرسل اليّ من "اسطنبول" هدية من السلطان العثماني عندما حزت مرتبة "عليّ الأعلى"

في الامتحان الخاص بتعيين مدرسي العلوم العليا في ذلك الزمان .

الإبن : "شرح المواقف" يا اب ! حضرتك تترجم لي اسم الكتاب أم هو اسمه عربي؟

الأب : الكتاب كله باللغة العربية ،اسما ومسمى.

الإبن : و الكتب الاخرى؟ طبعا أكثرها بالتركي؟

الأب : بنيّ ، الكثرة الكاثرة من هذه الكتب مؤلفة باللغة العربية . وفيها قليل من الكتب غير العربية . أما باللغة التركية فعندنا كتابان اثنان لا غير .أولهما مجلد يحوى نصوص بعض القوانين العثمانية القديمة. والثاني شرح الاستاذ علي حيدر لمجلة الاحكام العدلية ، و هو هذا الكتاب الذي في وسط الرف الرابع .

الإبن : المجلات كيف تشرح يا أبي؟ وهل كانت هذه المجلة شهرية ؟

الأب : هذه ليست "مجلة" بالمعنى الشائع حين
نقول : الجرائد والمجلات . وانما هو القانون
المدني ، قانون أحكام العقود والمعاملات
المالية ، و لقّب "بمجلة الاحكام العدلية"
ولايزال هو القانون النافذ في بلادنا
تطبقه المحاكم .

الإبن : والمجلة القانون ، هل هي بالتركية ؟

الأب : نصوص المجلة مدونة بالعربية . والشرح ،
شرح الاستاذ علي حيدر ، باللغة التركية .

الإبن : تعنى العثمانيين كانوا يطبعون كتب
باللغة العربية ، يا أبي ؟

الأب : يا ولدي : الظاهر أنه في ذهنك شيء
لا أدري ما هو . أما جواب سؤالك
هذا فهو : نعم ، العثمانيون كانوا يطبعون
كتبا عربية . بل انهم هم الذين طبعوا
ونشروا أهم مصادر علوم اللغة العربية .

الإبن: الاتراك نشروا مصادر اللغة العربية ؟

الأب: نعم ، يا بنيّ . انظر الى هذه الكتب التي على الرف الخامس في المكتبة : انها مؤلفات أئمة علوم البلاغة والوضع والنحو والصرف العربية ، كسيبويه و ابن الحاجب والتفتازاني والايجيّ والسيد الشريف ، وانها كلها مطبوعة في اسطنبول ، وبعضها من منشورات وزارة المعارف العثمانية .

الإبن: شيء غريب !

الأب: ولماذا غريب ؟ ..... قل لي عبدالله ابني: عندك من زملائك اصدقاء تصاحبهم عزيزين ؟

الإبن: نعم يا أب: عندي صدقان ، وحضرتك تعرفهم ، آباؤهم من اصدقائكم ، ويزورونني بالبيت .

الأب: من تقصد ياولدي من هم ؟

الإبن : أمجد ونافع ، يا أب . ويا ليت مرة نسمعنا ثلاثتنا كيف نتداعب ونتجادل ونتعارك ايضا بالكلام ، لكن ما نتزاعل أبدا ، ولا أحد منا يبقى بخاطره شيء .

الأب : بارك الله بكم ، وكيف تتجادلون ، مثلا ؟

الإبن : أمجد مثلي - يا أب - ما يعرف كلمة تركية ، ولا أحد يتكلمها ببيتهم . نافع يعرف اللغة التركية ويتكلم بها مع والدته مثل البلبل . فنجي أنا وأمجد نعيد ونصقل دروس استاذ التاريخ وكلامه على الاتراك والعثمانيين ، ونضيف من عندنا تعليقات مفلفلة ، ونافع يقوم يصير عصبي ويعربد ويقول : " دروس الاستاذ كله غلط وأنتم أغبياء ما تفتهمون " ، و هنا نبدأ نضحك ، ثم نغير الموضوع لنعود اليه بعد أيام .

الأب : هذه دعابات منشّطة ، مادامت في حدود الادب والمودة بين الاصحاب . والآن - يا

بنيّ – ابدأ أنت بمذاكرة دروسك ؛ وأذهب أنا لقضاء بعض الاشغال .

وينصرف الولد الى كتبه و دفاتره ودروسه فتستوعب هذه فكره وهمته ساعتين وبعض ساعة . ثم اذ هو يريد الانصراف عنها يشعر بأصابع محبة مشفقة تمس ملتقى كتفه وعنقه ، فينتبه الى والدته تدعوه لينزل الى الحجرة السفلى ويتناول معها شيئا من الفاكهة والحلوى ، هبط السلالم ، والى جنبه الام الحنون تداعب بأناملها رأسه وشعره الكستنائي الجعد الكث . فلما بدءآ يتناولان الفاكهة استذكر هو الحديث بينه وبين والده ، ولمع في ذهنه – وهو ناظر الى محيا امه المشرق العطوف – أن بعض ما قاله والده و واقع تلك الكتب العربية المطبوعة في اسطنبول يؤيدان ما يردده نافع بقوله المعهود "دروس الاستاذ كله غلط". فاذا كان نافع مخطئا في تغليط كل ما يقوله الاستاذ فهو مصيب في تغليط بعض ما يقوله، لأن الوالد لا ينطق الا بالصدق ، ولأن هذه الكتب هي حقيقة موجودة بين أيدينا في

المكتبة . وتلاحظ الام استغراق ولدها في التفكير ، فتستجلب انتباهه بعرض أمر تعلم أنه يروقهما معا وييسر الوالد الكريم :-

الأمّ : كيف حال صديقيك أمجد ونافع ؟

الإبن : زينين ، يا امّ ، وأنا - قبل ما تسألين - كنت افكر ببعض حكاياتي و اياهم .

الأمّ : طيب ، رأيك ، تدعوهم للغداء يوم الجمعة؟ واحضّر لكم مائدة مزينة معطرة مثل ما تريد . وترتاحون بعد الغداء ، ثم تروحون لما يعجبكم من رياضة أو لعب. موافق ، حتى أستأذن والدك ؟

الإبن : مثل ما تريدين ياامّ ، فكرة طيبة جدا ، واشكرك جدا . لكن هذه المرة ما آخذ اصدقائي للرياضة واللعب . نحن كبرنا ، ونريد نجلس ونتناقش في مسائل مهمة. بعد الغداء تكرمي علينا بالشاي ، وشوفي ابنك كيف يدير المجلس .

الأمّ : مثل ما تحب ، يا حبيبي . فادع اذن صديقيك .

ثم يأتي يوم الجمعة الموعود ، ويجتمع شمل الاصدقاء الاعزاء ، فيتعاطون من على المائدة المزدانة أطايب الفاكهة والطعام ، ومن على شفاههم الزكية طيبات الفكاهة والدعابة والضحك البريء . إنه يوم جميل . ثم هم الثلاثة ، آمال المستقبل و البقاء لآبائهم وامهاتهم ، ينتقلون من جلستهم حول المائدة الى مجلسهم في حجرة الضيوف. وبعد لأي تدخل "أم عبدالله" ، آتية اليهم بالشاي ، بل مغدقة على ضيفي ولدها العزيزين مزيدا من بهجة الإحتفاء بهما في أجمل غلالة من عبارات الترحيب والتكريم. ثم تتركهم وشأنهم ، قائلة لولدها : إبني اذا أردتم أي شيء فاخبرني حتى اسرع اليكم بما ترغبون .

والآن يبدأ الصدقان الثلاثة يشربون الشاي ، ويهم الداعي منهم بافتتاح حديث

شيّق يخوضون فيه خوضا هكذا ! -

عبدالله : تدري ، يانافع ، أنت احيانا تهزل ، لكن هزلك فيه شيء كثير من الحقيقة والصدق .

أمجد : هو اسمه نافع . ينفعنا - طبعا - بالهزل وبالصدق وبالشتائم الصريحة لما يغضب .

نافع : عفاريت ! يبيّن راح تعيدون وتصقلون من جديد . شوفوا لكم غير موضوع الاتراك ، وخلونا نحكي هادئين .

عبدالله : تأكد يا أخي نافع أنا جاد ، وما أنوي أيّ هزل أو دعابة . الموضوع هو نفس الموضوع ، لكن اسمح لنا - اللّه يخلّيك - نتكلم فيه بجد ونستعمل عقولنا ونفرق بين الخطأ والصحيح .

نافع : تفضل - يا أخي - سمعنا كلامك ،

وشوّفنا عقلك العظيم ، اذا كان أمجد يقبل يبقّي لنا العقل الينفع لغير الضحك و التعاليق .

أمجد : هي ظلت عليّ ! أنتم واحد أضبط من الآخر . لكن تبيّنون اليوم ناوين تخلوني أنا الوسطاني .تفضلوا مشكورين.

عبدالله : خلونا نفكر في الجملة الاخيرة يختم بها نافع دعابتنا الخالدة : "دروس الاستاذ كله غلط ،أنتم اغبياء ماتفتهمون". نافع يعرف نحن الثلاثة ما فينا غبي ، وهو ما يقصد الحقيقة بهذا الكلام . لكن قل لي هل تقصد الحقيقة لما تقول "دروس الاستاذ كله غلط" ؟

نافع : نعم أقصدها . دروس مدرس التاريخ غلط ؛ ما أعني كلها ، لكن أكثرها غلط .

عبدالله: وكيف عرفت أن هذي الدروس أكثرها غلط ؟

نافع : كنت ، وأنا صغير و لحد الآن ، اسمع من والدتي الثناء العاطر على الاتراك والعثمانيين ؛ وهي - مثلما تعرفون - سيدة متدينة وصادقة . فلما بدأنا هٰذي الدروس وسمعت الاستاذ يشرح النقيض تعجبت وتحيرت أيضا . فراجعت والدي ؛ وهو الذي بيّن لي الصحيح الصحيح من معلومات كثيرة يدرّسها الاستاذ وهي خطأ في خطأ .

أمجد : الظاهر - عبدالله - أنت ما تتفق مع نافع على أن الدروس أكثرها غلط أو خطأ ، وأنا مؤيد لرأيك هذا ؛ الدروس أكثرها من الكتاب المقرر ؛ وما يدخل في عقلي كل الكتاب يكون خطأ . لكن كلام نافع أيضا صحيح . هٰذي فيها معلومات هي بالتأكيد مخالفة للحقيقة والواقع . ولا تنس طريقتنا في

المناقشة الخالدة : أنا وأنت نهاجم الاخ العزيز ، وهو يردّ بعنف فبضط يبالغ ويشتّم أيضا شتيمته الحلوة ملثما تعرف .

عبدالله : كلامنا لحد الآن عموميات .نافع يبالغ بالكثرة ، وأنا أبالغ بالقلة ، وأنت - يا أمجد - نصبت نفسك الحكم العدل وقررت الرأي الوسط . طيّب ،هات واقعة ملموسة منْ المعلومات التي قلت انها بالتأكيد مخالفة للحقيقة والواقع .

أمجد : أنا أقول لكم . تذكّروا انتخاب النواب قبل شهرين ، وكيف كان الاستاذ يتكلم في الديمقراطية و مجلس النواب عن الشعب وحرية الانتخابات . هذي موجودة بالكتاب ، الرجل ما طلّعها من جيبه . ووالدي - مثلما تعرفون - من رجال القضاء ، ويطلع على حقائق امور الانتخابات . وأنا شفته وسمعته بنفسي مساء يوم الانتخابات : رجع

الى البيت وهو تعبان و غضبان ومتأثر ، والدتى سألته "خير ، كفى الله الشرّ ؟ أنت تعبان ـ ياأبا أمجد !" فأجابها " أنا مرهق ، وكيف لا أرهق وأُغضب ، قاضي العدل تزوّر الانتخابات كلها أمام عينيه ، وما يقدر يعمل ولا يقول أي شيئ ، قائمة النواب تخرج من جيب المتصرف (المحافظ) للمنتخِبين الثانويين حتى يدلوا بأصواتهم على غرارها ".

نافع : تعرفون كل هذا و تجادلونني أنا ! يا اخوان ، الناس صاروا يحكون بالمجالس و يقولون بصراحة : رئيس الوزراء و الوزراء ما هم بثوار ولا وطنيين ، كانوا جواسيس للانكليز ومرتبطين بالاستعمار - مختصر مفيد .

أمجد : ـ وهو ينظر الى ساعته ـ نافع ، ترى ظلت ساعة للمغرب ، قضينا أجمل يوم ، والآن نترك الاخ عبدالله

يدرس ، ونرجع لبيوتنا ؛ كل واحد منا يحضّر دروسه .

هَكذا اختتم اجتماع الاحبة عند انتهاء عطلتهم ، وبعد عصر اليوم التالى دخل عبدالله غرفة المكتبة ، منفردا بنفسه يروم تفحص كتاب من هذه الكتب يستخرجه كيفما اتفق . نظر الى الرفوف نظرة متعجلة فوقع بصره على عنوان " التعريفات " مكتوبا بخط والده على قصاصة ملصقة بقاعدة كتاب. استخرج الكتاب ، فألفاه قاموسا عربيا خاصا بمصطلحات العلوم ، كل العلوم بما فيها علوم اللغة العربية : المؤلف هو العلامة السيد الشريف - وكان قد سمع بأسمه في من ورد ذكرهم على لسان والده قبل أيام ؛ والناشر شركة الصحافة العثمانية ؛ والطبع بالمطبعة الوهبية في اسطنبول أواخر القرن الهجري الثالث عشر . فلما قلّب صفحات وجد مقدمة قصيرة بقلم أحد المصححين بالمطبعة تعرف بالكتاب ومؤلفه وتبيّن تاريخ الاعتناء بتنقيحه

وتصحيحه واعداده للطبع ، وتعجّب الفتى اذ اكتشف أن مصحح المطبعة العثمانية قد كان هذا الاديب الفاضل الذي يقرأ هو الآن ما كانَ خطه قلمه من نثر عربي جميل وشعر عربي أجمل تاريخا للطبع على نحو لم يحط به القارئ الناشئ علما ، يا لهذه الابيات الرائعة :-

هذه وُرْق على باناتها
تسلب اللب بترجيعاتها
أم رياض الزهر وافتة الصَبا
فشممنا الطّيب من نفحاتها
بل علوم وفنون طبعها
أظهر المضمر في آياتها
وانجلت أشكالهَا منتجة
إنجلاء الخود في مرءاتها
فاز من قد حازها مجتنيا
ثمر العرفان من جناتها
للذي جددها قد أرخوا
"جدد السيد تعريفاتها"

ويدخل الوالد الغرفة فيلفي

ولده الحبيب الوحيد سابحا في كتاب . ماذا تطالع - يا بنيّ ؟ ينتبه هو الى والده فيجيبه ثم يجيب : هذا كتاب "التعريفات"، وقد شرفتم في وقت الحاجة ياسيدي ؛ ههنا تاريخ بالشعر لا أفهم منه شيئا - ويضع الكتاب مفتوح الصفحة أمام والده . هذا تاريخ بحساب الابجد - يا بنيّ ؛ ويبدأ يعلم ابنه جملة حساب الابجد وطريقة استعماله في وقت جد قصير ؛ ثم يقول له : الآن عندك العلم ، فاستخرج أنت لنفسك التاريخ من مقطع هذه الابيات . ما أجمل هذه الطريقة للتاريخ بالشعر - ياسيدى الوالد العظيم - وها هو ذا "جدد السيد تعريفاتها" فالكتاب مطبوع في سنة ١٢٨٣ هجرية .

الآن يقصد الوالد الى تغيير الحديث وموضوعه فيسأل ابنه : هل استمتعتم، أنت وصديقك ، بعطلتكم نهار أمس ؟ نعم ؛ وكان لنا كل شيء جميل وطيب : الطقس ، والطعام ، والحديث المفيد الذي احب اعرض عليكم بعض ما دار فيه . أمجد حكى عن والده

ان انتخابات النواب كانت مزورة ؛ ونافع ذكر أن الناس تحكي على الوزراء لكونهم مرتبطين بالاستعمار وغير وطنيين . وبعد هذا الاجمال ينطلق الابن في سرد ما ذكره صديقاه بالامس كما ذكراه ، ثم يسأل والده عن وجه الصواب في ذلك كله .

يتريث الاب لحظات و يتأمل يختار الجواب المرشد لهذا الفتى الغض . إن ما رويت لي عن أبي أمجد على لسان ابنه صحيح ، فانه صديق لي قديم ، وقد حدثني بتفصيلات ذلك المسلك الضار ، فالعدل مصلحة والغش مفسدة في كل أمر . أما المشتغلون بالسياسة في وطننا فان فيهم الرجل الوطني ما خان قط بني قومه ولا أقواما آخرين ، وان فيهم الضالعين مع المستعمر يأتمرون بأمره في بلادهم من حيث يقدّرون ومن حيث لا يقدّرون . الوطنيون مغلوبون على أمرهم . والضالعون قد غلبوا بغلبة المستعمر المستحوذ على البلاد حكومتها وخيراتها . لكن شؤون

الدولات لا تنحصر في هَتين المسألتين اللتين ذكرتَهما الآن .

وقد سبق أن لاحظت من بعض أحاديثك الالتفات الى العثمانيين وشأنهم. وخير ما اوجز لك به تاريخ الدولة العثمانية هو انها كانت في سالف الزمان دولة عظمى بقيت اكثر من أربعة قرون .لكنها إبّان القرن الاخير من عمرها مرضت بأمراض الحضارات والدول العظمى حين تتداعى . اختلت السياسة والادارة في اقطارها المترامية . وغفلت هي عن النهضة الصناعية و نهضة الصناعات الحربية في أوروبا ، حتى ضعفت ضعفا شديدا تجاه الدول الاوروبية التي كانت تناصبها العداء أو تتناوشها بالحروب - ولا سيما روسيا القيصرية و فرنسا وبريطانيا . ثم نخرت في قوامها الضامر دابة الشقاق الداخلي ، تلك التي توفر على بثها الاتراك أنفسهم كما توفر عليه الاقوام الآخرون من شعوب الدولة العثمانية ، فانهارت ولفظت أنفاسها الاخيرة . وهذه قد

انتهت هكذا . فانته أنت من الحديث فيها أيضا .

غير أن مشكلات الحياة ومسائلها كثيرة ومتجددة . فلأن تهتدي الى منهج تستعين به في فهم هذه الشؤون خير لك من أن ترهق فكرك بكل واحدة من مسائلها على حدة . فاستمع أرسم لك منهجا مفيدا .

اعلم - يابنيَّ - أن الحياة ذات شجون ، وأن الخبرة فيها تأتي من ممارسة العلم والعمل ومن الاطلاع والتجربة ، وأن كل يافع ناهض ذكي فانه يستزيد كل سنة تقويمية مقدار عام كامل من المعرفة والخبرة . فاذا عُرضت عليك فكرة شاقتك أو ساءتك لاول وهلة فلا تتعصب لها أو عليها ولا تجادل فيها جدال حبّ أو كراهية ، بل ابحث وتساءل في هدوء عما يتعلق بها من معلومات ، وتفكر فيها مستعينا بسابق معلوماتك المستوثق منها ، ثم توصّل الى رأي لك فيها منسجم مع ما جمعت من الوقائع وتبيّنت من الحقائق . فاذا توصّلت

الى رأي فكن فطِنا الى انك أنت نفسك ربما تزداد بمزيد الخبرة اطمئنانا اليه أو اضافة عليه أو تحويرا منه أو انتباها الى مواضع النقص والخلل فيه . وأقبِل على ذلك كله اقبال الواثق المجدّ المميز بين النافع الأهم لتعجل به والنافع المهم لتؤجله الى حينه وبين المضر ضررا متيقنا أو مظنونا لتدرأه أو تنصرف عنه . والآن أظنك - يابنيّ - تدرك أن إكثارك من الانصراف الى العلم والدراسة والاستعداد للمستقبل، واقلالك من بذل الوقت لاحاديث السياسة وملابساتها ، هما العملان المنسجمان مع التمييز بين المهم والأهم في هذه المرحلة من مراحل عمرك .

استمع الفتى و انصت ، و تلقّى ووعى ، وفهم أن المستقبل آتيه - لا محالة - بالكثير من الاطلاع والتجربة والخبرة في شؤون الحياة . واستنتج مما سمع و وعى أن والده يحب له أن يصبح حقا شابا مفتوح البصر متفتح العقل نافذ البصيرة يتبين رأيه ولا

يركض إمّعة وراء كل راكض . واذ تأمل ذلك كله آلى على نفسه أن يكون عند حسن ظن والده به . فانصرف الى كتبه ودروسه ؛ حتى اذا حل الصيف ، وبشّر له الوالد الاصطياف مدة اسبوعين على جبال كردستان الشامخة وفي وديانها الخضراء ، سافر الى شقلاوة ومنها الى راوندوز . وبدأ يستطيب هذه الترويحة بعد اجتهاد العلم والفكر .

هنالك صادف فتى من أقرانه سبق أن تعرف اليه قبل عام ، انه كان قد خف الى راوندوز من مدينة كركوك ، حيث سكنت اسرته وعمل والده في القضاء . واستظرف صاحبنا الناهض المجدّ رفقة صاحبه في المصيف . فقد وجده رفيقا طيب النفس صريح القول سليم الطوية . وسرعانما علم من أحاديثه أنه منصرف الهمة الى فن الرسم (التصوير) بالقلم الرصاص والى فن الاستغراق في الاعجاب بجمهورية تركية الحديثة ورئيسها المؤسس ، هذا الزعيم الذي سعد هو برسم صورة له نصفية كبيرة متقنة

سخّر لها أحسن أقلامه و غاية جهده الفني . واستغرب صاحبنا أن رفيقه في المصيف جمع بين القدح والمدح البالغين في شأن الاتراك . إنه قدح في الاتراك العثمانيين ودولتهم العظمى ذاكرا المثالب كلها التي عزيت اليها واليهم .وإنه خاض في مدح الاتراك الجمهوريين ودولتهم الصغرى خوض معجب مستعظم خصالا لها ولهم جليلة أطنب فيها واعاد . فان تركيا - على ما وصف جازما واثقا - قد غدت دولة قومية أوروبية قوية متقدمة . إنها عَلمانية الطراز في كل شيئ . فإنهم قد نبذوا الأزياء القديمة واطبقوا على ارتداء "جاكيت وبنطلون" (أى السترة والسروال). وانهم قد احلّوا القبّعة أو البرنيطة محل الفيس أو الفينة (القلنسوة الحمراء) . و انهم قد حرروا المرأة بإلغاء النقاب والثياب المحتشمة وبتجبيذ التبرج كالنساء الاوروبيات جمالا بجمال. وانهم قد أحبوا ألا يؤذّن للصلاة في مساجد المسلمين الا بالتركية لغتهم القومية ؛ وحولوا جامع "أيا صوفيا" الشهير الى متحف للآثار . وان هذه النهضة العصرية العظيمة قد

تحصلت بجهود محمودة وقوانين مشرّعة ـ على ما وكده الرفيق المعجب في سلسلة من الجمل الموكّدات .

أما صاحبنا الناهض المجدّ فقد استمع الى تلك الاحاديث واستطرفها دون أن يقطع برأي في ما سمع من المثالب الغابرة والمآثر الحاضرة . لكنه سأل محدثه عما اذا كانت تركيا العصرية تصنع السيارات والطيارات والبواخر ومولدات الكهرباء ؛ فكان الجواب أن هذه الصناعات سوف تأتي فيما بعد .ثم انتبه الى أمرين اثنين أولهما التعارض المحقق بين هذا الجواب وبين ادعاء تلك النهضة العصرية . والثاني علمه اليقين بأن صاحب الادعاء ليس بتركي ، لا أبا ولا اما . فرأى هو لنفسه التريث في الحكم ، وآثر الركون الى منهج الفكر أتحفه به والده فيما قبل .

انتهت العطلة وتتابعت الايام ، وانقضت بعدها أشهر وأعوام ، وصاحبنا الناهض يستزيد من الخبر والخبرة عاما بعد عام .

فقد قرأ واطلع وشاهد واستطلع وخاض من بحر الحياة أقرب اللُجج .واستطاع اتخاذ صدقان له ممن هم أكبر منه سنا واسبق جيلا ، من أهل العلم بين مدرس وشاعر وطبيب وقاضي . ولقد أفاد من التحاور معهم معلومات كثيرة بعضها قريب العهد أو معاصر فلا يعثر عليه في كتاب . ولقد علم منهم ،على اختلاف آرائهم ومشاربهم ، اجماعا قاطعا على بلوغ الدول الاوروبية شأوا عظيما في الحضارة علما وصناعة وقوة ومعيشة وانتاجا . بل ان هذه القضية المجمع عليها بين الخاصة قد غدت من المسلّمات العامة التي لا يطلب عليها دليل . فالعصر عصر الحضارة الاوروبية - ولا منازع . والاوروبيون هم أهل العلم والصداقة والخير والحرية والعدالة والمساواة ليس لهم فيها كلها نِدّ ولا مضارع . وكلما تعاقبت الاعوام ازداد هذا المذهب تأصلا بين الأنام .

وانه لعلى علم بأن شعوب المملكة البريطانية هم أقوام اوروبيون ، وان هذه المملكة دولة عظمى من دول الحضارة الاوروبية المعاصرة.

فاذا كان أصحاب هذه الحضارة هم أهل الخير والعلم والحرية والعدالة والمساواة فان دولتهم العظمى هذه خليق بأن تكون هي أمثل مواضع الرجاء لهذه الخصال الرفيعة والمقاصد السامية . و هاهي ذي نسخ ما تزال باقية عند بعض الناس من "المنشور" الذي نشر بإسم "جنرال مود" (في ((آذار ١٩١٧) أيام احتلال بغداد ، وفيه التصريح بعهد العمل على تحقيق تلكم المقاصد والاماني لاهل العراق - على ما هو واضح من نصه :-

" يا أهالي ولاية بغداد :

« انني بأسم جلالة مليكي المعظم ، واسم شعوبه التي يحكم عليها ، اوجه اليكم الخطاب الآتي :

" الغرض من معاركنا الحربية دحر العدو واخراجه من هذه الاصقاع . فاتماما لهذه المهمة ، وُجِّهتْ اليّ السلطات العليا المطلقة على جميع الاطراف التي تحارب فيها جنودنا . الا أن جيوشنا لم

تدخل مدنكم واراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء ، بل بمنزلة محرّرين .

"لقد خضع مواطنوكم ، منذ أيام هولاكو ، لمظالم الغرباء ، فتخرّبت قصوركم ، وتجرّدت حدائقكم ، و أنّت اشخاصكم واسلافكم من جور الاسترقاق. لقد سيق ابناؤكم الى حرب لم تنشدوها. وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في اصقاع شاسعة .

"تلكم الاتراك منذ اعلان مدحت باشا عن الاصلاح ، ومع ذلك أفليس دثور اليوم وقفوره برهانا على بطلان هذه المواعيد ؟ انها ليست امنية جلالة مليكي المعظم فقط وامنية شعوبه ، بل انها امنية الامم العظمى المتحالف معها جلالته ، أن تفلحوا كما في السابق وقد كانت أراضيكم مخصبة ، وكان العالم يتغذى بألبان آداب جدودكم وعلومهم وحرفهم، وقتما كانت بغداد احدى غرائب الدنيا .

"لقد ارتبط قومكم بأيالات

جلالة مليكي المعظم بعروة المصالح الوثقى.
فقد تعاطى تجار بغداد ، وتجار بريطانية
العظمى ، بعضهم مع بعض ، منذ مائة
سنة متبادلين المنفعة والصداقة .أما الالمانيون
والاتراك الذين نهبوكم أنتم و ذويكم ،
فانهم اتخذوا بغداد مدة عشرين سنة ،
مركز قوة يهجمون منه على نفوذ البريطانيين
وحلفائهم في بلاد ايران والامصار العربية .
فعلى ذلك لم تتمالك الحكومة البريطانية
من البقاء ضاربة الصفح عما يحدث في وطنكم
حاضرا ومستقبلا ، اذ أنه قياما بواجب
مصلحة الشعوب البريطانية ، وشعوب حلفائها ،
لا تستطيع الحكومة البريطانية المجازفة في وقوع
ما عمله الاتراك والجرمان ببغداد اثناء الحرب
مرة ثانية . ولكنكم يا أهالي بغداد ،
يا من حرفكم التجارية وتأمينكم من الظلم
والغزو أمر يستوجب أدق اهتمام الحكومة
البريطانية به أبد الدهر ، لا يجب عليكم
أن تظنوا بأن رغبة الحكومة البريطانية هي
تكليفكم نظامات [يعني تشريعات] أجنبية .
فامنية الحكومة البريطانية هي أن تحقق

ما تطمح اليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة اخرى ، ولسوف يسعد أهالي بغداد حالهم ويتمتعون بالغنى المادي والمالي ، بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة [يعني القوانين الاسلامية] واطماحهم القومية والفكرية.

"لقد طرد العربُ من الحجاز الاتراكَ والجرمانَ ، الذين بغوا عليهم ، وقد نادوا بعظمة الشريف حسين ملكا عليهم. وعظمته يحكم بالاستقلال والحرية ، وهو متحالف مع الامم التي تحارب دولتي تركية وجرمانية . وهذه هي حقيقة حال اشراف العرب ، وامراء نجد والكويت ، وعسير . كثيرون هم أشراف العرب الذين راحوا ضحية في سبيل الحرية على أيدي أولئك الحكام الغرباء الاتراك الذين ظلموهم .

" ان التصميم لهو تصميم بريطانية ، وتصميم الدول العظمى المتحالفة معها ، على أن لا يذهب ما قاساه هؤلاء الاعراب الشرفاء هباء منثورا .

"ان المأمول لهو مأمول بريطانية العظمى، والامنية امنيتها، بل هما مأمول وامنية الامم المتحالفة معها، ان تسمو الامة العربية مرة اخرى عظمة وصيتا، وان تسعى كتلة واحدة وراء هذه الغاية بالاتحاد والوئام.

"يا أهالي بغداد تذكروا تألمتم مدة ستة وعشرين جيلا. آذاكم الظلمة الغرباء الذين سعوا دائما أبدا الى الايقاع بين البيت و البيت كي يستفيدوا من انشقاقكم. فهذه السياسة مكروهة عند بريطانية العظمى وحلفائها، اذ أنه، حيث العداوة وسوء الحكم، لا يستقيم سلام ولا فلاح. فبناء عليه انني مأمور بدعوتكم بواسطة اشرافكم والمتقدمين فيكم سنا، وممثليكم الى الاشتراك في ادارة مصالحكم المُلكية [يعني المدنية] لمعاضدة ممثلي بريطانية السياسيين المرافقين للجيش، كي تناضلوا مع ذوي قرباكم شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، في تحقيق أطماحكم القومية".

ذلكم هو المنشور بعُجره وبُجره.

ثم ان الدولتين العظميين بريطانيا وفرنسا المستعمِرتين قد اشتركتا في اصدار "بلاغ" (في سورية بتاريخ ٧ / ١١ / ١٩١٨) هذا نصه :ـ

"ان الغاية التي ترمي اليها كل من فرنسة وبريطانية العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق ، من جراء اطماع المانية ، هي تحرير الشعوب التي طالما رزحت تحت اعباء استعباد الاتراك تحريرا تاما نهائيا ، وتأسيس حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة نفس السكان الوطنيين ومحض اختيارهم . وتنفيذا لهذه الغايات قد اتفقت كل من فرنسة وبريطانية العظمى على تشجيع و مساعدة انشاء حكومات وادارات وطنية في كل من سورية والعراق ، ولقد حررهما الحلفاء فعلا ، وفي الاقطار التي يسعى الحلفاء في تحريرها ، والاعتراف بهذه الاقطار بمجرد تأسيس حكوماتها تأسيسا فعليا .وان فرنسة وبريطانية العظمى لا ترغبان في وضع نظامات خاصة

لحكومات هذه الاقطار، بل لا همّ لهما الا أن تضمنا بمساعدتهما و معاونتهما الفعلية سير امور هذه الحكومات، والادارات التي يختارها السكان الوطنيون، سيرا معتدلا، وان تضمنا سير العدل الشامل الخالي من شوائب المحاباة، و ان تساعد التقدم الاقتصادي بانهاض همم الاهلين وتشجيع مشاريعهم، وان تساعدا على تعميم التعليم والتهذيب، وان تضعا حدا للتفرقة التي طالما توخاها الاتراك في سياستهم.

"هذه هي الخطة التي ستسير عليها الحكومتان المتحالفتان في الاقطار المحررة".

بيد أن واقع الحال التي رآها صاحبنا الناهض بأم عينيه قد كذبت المنشور والبلاغ المشترك، وناقضت تلك القضية المسلمة اسلفنا ذكرها وكل ما بني عليها من نشدان الخير والحرية والعدالة والمساواة. فالوزارات العراقية المهمة إنما يديرها ويوجه اعمالها مستشارون بريطانيون. ووزارة المعارف

(التربية والتعليم) يهيمن عليها مستشار بريطاني ليس هو من رجال التربية والتعليم بل ضابط بدرجة "كيرنل" . ورئيس "محكمة تمييز العراق" ورؤساء محاكم الاقاليم هم من الانكليز أو البريطانيين ، وفوق هؤلاء وغيرهم أجمعين "المندوب السامي البريطاني"، صاحب الكلمة النافذة و القول الفصل في كل ما يتصل بالعراق من سياسة وادارة وتجارة ووزارة . ثم ها هو ذا النفط العراقي تستخرجه شركات بريطانية بدأت ببيعه على نطاق تجاري ، وليس للعراق من خيره غير نزر يسير ونصيب مفتور ، فأين هي - يا ترى - الصداقة والحرية والعدالة والمساواة؟ لكن صاحبنا الناشيء ما كان بالقادر يومئذ على حل عقدة التناقض رآها فكرُه بين حاضر العراق وواقع حاله و بين هَتيك المسلمات المجمع عليها في شأن الحضارة الاوروبية ودولها وشعوبها .

واندلعت الحرب العظمى الثانية . وإبّانها سافر صاحبنا الى مصر للاقبال

على الدراسة في معاهدها العالية ، هنالك رأى ما لم يكن رأى في العراق ؛ وقرأ ما لم يكن قد قرأ بالعراق ، وعاش بين الاوروبيين وسعهم وجها لوجه . ايه ما أحلى معاشهم ! وما أطيب العيشة بين ظهرانيهم! فلنستمتع ههنا ساعة بذكر ما ذكر هو من أطايب العيش هنالك . فعنده ، قد صدّق الخَبرَ الخُبْر ، و تفتّق الصدف المخبّر عن صافية من الدر .

في مصر ، في حاضرتي القاهرة والاسكندرية ، تجلت زينة الحياة الاوروبية انسابت اليهما من الغرب . ههنا الاوروبيون قد استوطنوا . وههنا قد عملوا فأجادوا . بنوا في قلب المدينة القديمة مدينة حديثة قوامها مبان جميلة وعمارات منيفة وحوانيت أنيقة و مهايع معبّدة وأرصفة نظيفة تغسل صباح مساء . وبنوا في أطراف المدينة ضواحي مونقات من الرياض والجنان وألوان الشجر والزهر والحواجم تنتثر خلالها مساكن جديدة وقصور مشيدة

وملاعب رغيدة ومسابح هي حقا مصداق قول الشاعر :-

ماء كأنّ به الصفاء بقية
من تلكم الاجسام والاجساد

وفي المدينة الحديثة ، ظهر الاوروبيون كيف يعيشون ويتعايشون ويعملون ويتعاملون ويجدون ويتداعبون . هم خليط بين ايطالي ويوناني وفرنسي وسويسري وغير أولئك وهؤلاء .وهم متمدنون منسجمون يشيدون مرافق الحياة المدنية ويعمرونها ويحيون فيها حياة طيبة . انهم يعملون في المصارف والمتاجر والمدارس والمطاعم والمقاهي والمعارض . ولطالما ازدانت شوارع المدينة الحديثة في الاماسي بهذه الاسر الاوروبية تزين أشيبها روعة الوقار وطفلها وداعة المحيّا وبراءة الابصار وغيدها الناهدات خلابة فرع من الابريز و خدّ من الزنبق و قدّ مائس خطّار .

أما صاحبنا - و هو يومذاك في المستهل من ريعان شبابه - فقد مال الى القاهرة الحديثة والحياة الجديدة ميلا واضحا أكيدا متزنا . وما كان بالذي تجلبه الاجارة الرخيصة الى بيوت الاحياء القديمة ومنازلها . فطفق يبحث عن اسرة من تلكم الاسر الاوروبية تكنّ من ترتضي من طلبة الجامعات متى فرغت من مسكنها غرفة بزواج ابن أو زفاف ابنة الى مستقر بعلها . وقد جدّ فوجد . وجد لنفسه كِنّاً مع اسرة سويسرية ربها طبيب ومسكنها في الطابق الثالث من عمارة منيفة على شارع قصر النيل . هكذا بدأ يُصبّح له ويُمسّى ، ويصبّح هو ويمسّي ، باللغة الفرنسية لاول مرة في حياته . وهكذا أخذ يسمع من الافواه السويسرية في شأن بلادها الرائعة بجمالها ووداعتها وتمدنها وصفا شيّقا سلف أن قرأ مثله في "رحلات" الدكتور عبدالوهاب عزام . هذا في الكنّ والمسكن .

وفي مجتمع الناس كانت على مقربة منه صالات "كروبي" الشهيرة وحدائقها الانيقة (في "شارع الملكة فريدة" و" ميدان سليمان باشا") ، هذه التي يؤمها الاوروبيون والاوروبيات في عامة جالياتهم و خيرة المثقفين والمثقفات من خاصة أهل مصر، فأخذ فتانا يغشاها للاسترواح و لمذاكرة دروسه - ولا سيما تلك التي في شارع الملكة فريدة قيد خطوات نشيطات منه. هٰهنا تحدث واستمع وقرأ واستمتع واكل وشرب وتعرّف وطرِب وأصغى الى الموسيقى الاوروبية "الكلاسيك". فاذا أحببت أن تعرف مدى انعطافه الى تلكم البيئة الغربية المنتقلة الى الشرق فانه هو قد جاد بالافصاح عنه في قصيدة طويلة من بواكير شعره عهد ذاك، فلنقتطف منها هذه الثلاث المقتطفات يتنقل فيها من "الجبلاية" الاصطناعية في ضاحية "الزمالك" الى "كروبي" في مركز المدينة فالى الاسرة السويسرية عاش معها :-

تلك الديار مغانيها مباهجنا
وذكرها طول باقي العمر ذكرانا
ففي "الزمالك" في شطّي جزيرتها
زرنا الفراديس من أرجاء دنيانا
نأتي جبيلتها الزهراء تتحفنا
في غارها السمكات الزُهر ألوانا
كم طيّبت في الشعاب الجون عاطرة
وقت الصباح أو الآصال نجوانا
أو كم ترى جنّ فيها جنبد عطر
للرشف حينا وللتقبيل احيانا

ه ه ه

وفي "كروبي" اذا ازدانت حديقتها
تطيب ذكرى تعيد القلب نشوانا
ألفيت فيها الغواني حلّ من كُنُس
"بالغرب" آباؤها في مصر سكانا
هيف القدود رشيقات مهذبة
أنىٰ خطرن شممت العطر ريّانا
زهر الوجوه رضيات شمائلها
اذا مُدِحن جزين المدح شكرانا
فجال في خاطري من بعد فتنتها
أنا نزلنا بواد فيه بلوانا

وكنت أزعم أني واجد سَلَما
من العيون متى غادرتُ بغدانا

٥ ٥ ٥

واسرة عند "قصر النيل" مسكنهم
آسوك من فرقة الاهلين أزمانا
مهما تنفس صبح قال قائلهم
عِمِ الصباحَ وكن للخير عُنوانا
أُذْكُرُهُم كلما اَسَتهواكَ منعطف
الى ضفاف تردّ القلب هيمانا
صاحبتَهم معشرا تحكي طبائعهم
في البشر "نيلا" وفي الايناس "ليمانا".

وقد زاد من انعطافه الى أوروبا وحضارتها العلم والفن. فمن العلوم اختار التشريع والقانون لدراسته الجامعية، ومن الفنون أحب رائع الشعر والنثر. ولكل واحد من هذين المجالين برّز في مصر يومئذ عَلَم فرد: لأولهما فقيه القانونين المدنيين الفرنسي والمصري الاستاذ الدكتور عبدالرزاق السنهوري، ولثانيهما عميد

الادب العربي الاستاذ الدكتور طه حسين.
أول الرجلين كان قد نال مرتبة دكتوراه من كلية القانون بجامعة "ليون" بفرنسا، والثاني مرتبة دكتوراه من "السوربون" بجامعة باريس. وطارت بأسماء الرجلين الى أرجاء البلاد العربية دعاية خارقة لم ترافق اسم أحد غيرهما من أهل الادب والقانون . فكل في مجاله صار هو المرجع والعميد. وشرع فتانا المستهام بأوروبا يقرأ كل ما تصل اليه يده مما يكتب هذان الاستاذان العميدان ، ويسعى الى الاستماع الى كل محاضرة يلقيها أحدهما في قاعة درس أو منتدى علم أو خلف مذياع . فقد استقلا المنازل الحديثة لقيادة الفكر.

عميد القانون وجه عقول الناس الى القانون الروماني والفقه الفرنسي والفقهاء الفرنسيين الذين عزا اليهم كل فضل في علوم الفقه إلا السبق الى فلسفة القانون واصوله الذي نسبه الى الانكليز والالمان في كتابه في اصول القانون ، وعميد

الأدب وجه قلوب الناس الى فرنسا وامسيات باريس ومسارحها ، والى المسرحيات الاوروبية ما كتب منها للجد أو الهزل ، حتى استحق وساما أنعمت به عليه الحكومة الفرنسية. بل انه اذ مدح الجامعات والمعاهد الفرنسية ذم الجامعتين المصريتين الوحيدتين يومئذ : جامعة مصر القديمة العريقة ، جامعة الازهر التي كان هو قد تعلم فيها ، وجامعة مصر الحديثة ، جامعة فؤاد الاول (القاهرة الآن) التي علم فيها استاذا وعميدا لكلية الآداب . وقد كان ، الى هذا وذلك ، خير موجه الى الادب الاوروبي الكلاسيك - اللاتيني منه والاغريقي .

لكنه لم يكن الوحيد في الدعوة الى الاغريقيات . بل القِدح المعلا في أحياء التراث الاغريقي والترجمة من اليونانية الى العربية قد كان للاستاذ لطفي باشا السيد الذي مر ذكره في الفصل الرابع . وسبق لفتانا ميل الى المنطق والفلسفة ، فحداه الى جعل شيئ من أوقات فراغه لقراءة ما تيسر

في الفلسفة الاوروبية، اليونانية منها والحديثة، وفي المنطق القديم والحديث، والفلسفة تجر - كما هو معلوم - الى الخوض في مسائل ليست هي من الفلسفة حسب اقتضاء المنهج المنطقي لتقسيم العلوم، والكاتبون بالعربية في اليونانيات لم يقتصر كتبهم على ذينكم المجالين؛ بل اتسع لعرض المعرفة اليونانية القديمة حتى اصبحت "إلياذة" "هوميروس" على لسان من يفقه ومن لا يفقه من الادب شيئا، وقد زاد من رغبة الراغبين في الثقافة الاوروبية الاغريقية ان جالية يونانية كثيرة العدد كانت تستوطن مصر، و تعايش المصريين في احيائهم القديمة، و تتكلم العربية الدارجة المصرية بلهجة مستظرفة فيها الحارة "خارة" و الحب "خب" و الحسرة "خسرة". و ما أكثر ما استعملوا في التخاطب نداء "يا خبيبي"، هذه المرضيّة المستطابة - ولا سيما اذا انسابت الى الآذان بتنغيمة طيبة من حنجرة ناعمة يكاد باطنها يرى من ظاهر الجيد المتناهي في التورد و البياض.

و في غمرة هذا الشغف بالحضارة الغربية ، و هذه الانسجامة السعيدة مع الحياة المدنية الاوروبية ، برزت للفتى العقدة ذاتها التي سبق أن صارعت فكره و هي مستعصية عليه في العراق . عقدة التناقض بين الخير والفضائل المحبوبة المسلّم بها للحضارة الاوروبية وشعوبها وبين الشر والرذائل المكروهة المعزوّة الى الاستعمار الاوروبي . انه قد كره خلائق الاستعمار الانكليزي رآها في العراق . وانه قد كره خلائق الاستعمار الفرنسي رويت له مما في الجزائر والمغرب الأقصى . وانه ، اذ جال في القدس وبيت لحم وحيفا واللدّ وحول بحيرة طبرية ، قد شاهد مكاره "الإنتداب" البريطاني ، و نصرته للعصابات الصهيونية ، وعمله على توطين اليهود واقامة دولة لها في فلسطين . هذه كلها ؛ لكن عقدة التناقض ما عادت تقوى هذه الكرة على الاستعصاء بين أنامل الفكر على كل حل .

أو ليس الاوروبيون هم هؤلاء

الطيبات و الطيبون نراهم، نسامرهم، نتعامل و نحيا معهم على ضفاف النيل بالقاهرة و على شواطئ البحر الابيض المتوسط في الاسكندرية ـ هذه الدرة الجميلة و الثغر الباسم المتفتق مما عملته أيدي الاسكندر المكدوني. ثم أليس الاستعمار هنا، كما في العراق، هو ذلك الانكليزي المتستر وراء سلطات دولة مصرية، و ما للجالية الانكليزية بين الجاليات الاوروبية المستوطنة هنا أيّ تميّز أو غلبة في العدد و المنزلة و الظهور. لاجَرَم أن للجيش البريطاني أفواجا في "القصاصين" و في الموانئ العسكرية على شطآن مصر؛ غير أن فيالق هذا الجيش و سائر جيوش الحلفاء تغطي اليوم البراري و البحار في أرجاء الارض لسبب من هذه الحرب العظمى الدائرة بينها و بين جيوش المانيا و دول المحور المنتشرة كتلك في ثلاث قارات من كوكب الارض. وانما يضاف الشئ الى مصادره. فكيف ننسب الحسنة الى

شرار ديدنهم الشر والسوء، وكيف نعزو السيئة الى خيار ديدنهم الخير والحسنى؟!

فالظاهر أن شعوب الحضارة الاوروبية - وقد خبرنا جالياتها نماذج حية من اصولها - هي المصادر الحقيقية لكل ما هو حسن في حضارتها بكل ما هو متوفر لديها من حب الخير والرأفة والسلم والحق للحق والعلم للعلم والفن للفن في معاهدها وجامعاتها الحرة العامرة، أما نزعة الاستعمار وقبائحه فما لها من مصدر غير شراذم شِرار من ساسة وعاملين مدرّبين على أفانين الغش والتحايل والجور في وزارات المستعمرات للحكومات التي نحت بها تلكم الشراذم منحى الاستعمار. فأما الشعوب وجامعاتها وعلماؤها فالكل براء من قبح الاستعمار وقبائحه. وكل اناء بالذي فيه ينضح.

فها هي ذي عقدة التناقض قد انحلت بما انتهينا اليه من انتفاء

التناقض من أصله . اذ التناقض، على ما هو متقرر في علم المنطق و مبادئ الفلسفة، لا ينشأ بين أمرين أو قضيتين الا عند وحدة المصدر والمحل، وفي ما نحن فيه مصدران مختلفان - كما رأينا في الصفحات السابقه . بل الامر قد استغنى اليوم عن متاعب الحل والتعليل بعد صدور كتاب "الانجليز في بلادهم" للاستاذ حافظ عفيفي. فان الرجل قد ذهب وخبر وشاهد وانتهى الى أن الانكليز هم ذلك الشعب الطيب في بلاده المختلف كل الاختلاف عن هؤلاء النفر من مزاولي أعمال الاستعمار الذين يجدهم خارج تلك البلاد الطيبة. ولم يأل جهدا في عرض المشاهد والاحوال في كتابه، وبسط القول في مدحة ذلك الشعب الممدوح خلقا وخلقا وعلما وعملا، و مذمّة النفر القليل جدا منهم المشتغلين بالاستعمار خارج تخوم الوطن في سبيل الشيطان. وهل على وجه الارض شعب ووطن يخلو من بعض الاشرار ؟! ثم ان بريطانيا العظمى هي حقا عظمى الدول الاوروبية اليوم والنسخة

المثلى للحضارة الاوروبية وديموقراطيتها في التطبيق.

هكذا انعقد عزم فتانا المحب المستعظم شأن أوروبا وحضارتها على اكمال الدراسة العليا في بلد أوروبي ، واتجهت انظاره صوب فرنسا على وجه الخصوص . الجدّ عنده أمر معهود ؛ لكنه الآن ينبغي عليه مضاعفة الاجتهاد بتلقي دروس خارج نطاق الجامعة . حتى اذا بلغ بدراسته في القاهرة مبلغها ونال الشهادة الجامعية العالية شهادة الاجازة (- أو "ليسانسيه" أو "بكالوريوس" على مذاق أولئك الذين لا يفقهون أن هتين اللفظتين اللاتينيتين لا تحملان غير معنى الاجازة العربية في علم أو مهنة -) وجد البلبل الغرّيد نفسه مستعد الجناح لعبور البحر الابيض المتوسط الى جنات أوروبا ، فالتحويم هنالك في رياضها الغن حول الزنابق و الحواجم والاقاحي ألوانها كما قال الشاعر (لكن في الخمر لا في الزهر) :

"بيضاءَ أو حمراءَ إن كريمها

كالغيد كل مليحة بمذاق".

فدأب يحضر بالاماسي دروسا في الفرنسية ، واخرى في لغة "اسبرانتو"، في مدرسة "بيرلتس" للغات بالقاهرة . وبدأ يمارس التقشف في معاشه ليدفع الى تلك المدرسة اجورها . وآثر أن يمرّ بالفرنسية لماما ليقف مع الاسبرانتو وقفة الراغب في الإحاطة . ذلك لما شاع يومئذ في ربوع العلم والادب من أن الحكومات لا ترعوي عن استثارة أوار هذه الحروب لان الشعوب غافلة لا يعرف بعضها بعضا فلا تتعارف ؛ وأن السبيل الى حصول المعرفة والتعارف مع تباين اللغات وتعددها هو استحداث لغة واحدة يتعلمها المثقفون في الشعوب كلها من حول الارض ، فتتقارب الشعوب وتتحابب وتحول دون اندلاع الحروب . وهذه لغة الاسبرانتو قد اصطنعتها الحضارة الاوروبية لتصبح لغة الدنيا بعد

هذه الحرب العظمى الثانية ، ومهما يكن من حداثة السن تسهيل لاقتحام المداخل المتخيّلة الى العلم والحياة فإن فتانا قد تعلم الاسبرانتو تلك اللغة المصطنعة .

٨

ولقد مرت الايام متعبة مسعدة مسرعة . فما هي الا ومساعي الدراسة قد اثمرت ، وقطوف الشهادة العالية دانية ؛ وان ينس الفتى فما نخاله ينسى قط مشهدا تم له فيه نجح ونصح وعظيم تبريك ، مضى ذات يوم الى "الكلية" وقد اقترب ميعاد نتائج الامتحانات الخاتمة . فألفى بالرحبة الفسيحة أمام الكلية بعض زملائه الذين أسرعوا الى إخباره بأن النتائج ستعلن بعد يوم ، فوقف مع زمرته يتحدث اليهم وقد كفوه مؤونة الانتهاء الى شعبة الادارة لمزيد سؤال ، واذ هم واقفون كذلك متفائلين ، مرّ غير بعيد عنهم "سكرتير الكلية" (اي أمين سرها ، الا أن اللفظة الاوروبية اختيرت رسميا لاستشعار الناس معها بعلو منصبه) متوجها في وقاره غير المجلوب الى حيث مكتبه ؛

فحياهم ، فحيوه بأحسن منها فى نبَرات صوت مشعرة بما له عندهم من احترام شخصه وتقدير رعايته الابوية للطلبة . واذا هو كذلك ملتفتا الى يساره لتحية الزمرة ، لمح بينهم فتانا فتوقف فجأة ونادى رافعا صوته للبلاغ : استاذ عبدالله . فأجاب الفتى : نعم ، سعادة الاستاذ ، واسرع اليه مستجيبا لندائه . فاذا بالرجل الوقور ذي الشعر الاشيب في ملابسه الاوروبية الانيقة يمدّ يده الى الفتى يصافحه ويمسك بيمناه قائلا مسمعا : "أهنئك من كل قلبي - يا إبني - ، ربنا يبارك بك ، فأنت قد تفوقت تفوقا ملحوظا و حصّلت النهايات القصوى في جميع الدروس ، اذهب الى الجامعات الاوروبية لاكمال التحصيل ، فأنت أهل لذلك ، وأسأل اللّه - تعالى - أن يوفقك ". فأفصح الشاب المتخرج المتفوق عن بالغ شكره وامتنانه لما خصّ به من التهنئة والتبريك والنصيحة والتوجيه ، فتابع الرجل الرشيد مسيره الى مكتبه . ثم اندفعت الزمرة الى رفيقهم يهنئونه تهاني حارة وجميلة ، وهو يشكرهم و يرجو لهم

جميعا النجاح الباهر سيعلن بعد غد .
لقد أفعم هذا المشهد قلبه بسرور فوق سروره بنيل الشهادة العالية .

وظل الشاب المتخرج المتفوق في مصر بضعة أشهر ، يكتب الى جامعات أوروبية ، ويزور البارزين ممن سبق أن نالوا شهاداتها العليا يستنصحهم ويسترشد بما عندهم من خبرة . فحصل على القبول في عدد من الجامعات بسويسرا وفرنسا والمملكة المتحدة . وكتب في أمر الخطوات التامة الى والده الذي أحب له مواصلة الدراسة ، لكن شؤون اسرته قد حتّمت عليه تأجيل ما طالما تمنى . فهو الابن الوحيد ؛ وله شقيقات في سن الصبا ؛ و كانت الوالدة - أثابها الرّب الرؤوف واجزل عطاءها- قد انتقلت الى دار المقام قبيل ذهابه الى مصر لنيل الشهادة العالية ، فعاد الى الوطن ، مستعيضا عن السعادة المرجوة في تحصيل العلم الاوروبي بالسعادة المستحصلة في لقاء أحبائه وملازمة اسرته .

وما كل ما يتمنى للحياة يدركه ليومه، بل :

"ما كل ما يتمنى المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن".

فلما عاد الى الوطن تأهل .
وعمل في ادارات حكومية ومدرسا في بعض المعاهد (الكليات) العالية وما من جامعة تجمعها يومذاك . وتقلبت به الحياة بين الفرح والترح والعسر واليسر و الشدة والرخاء، ودرجت سنوات فنهضت أخواته ، و زف بعضهن الى بعض ذوي القربى من الرحم. ورزق هو و زوجه بثلاثة أبناء. ثم آن الاوان لمعاودته أماني الدراسة بأوروبا . وشجعه والده الجليل خير تشجيع ، مفصحا عن الغبطة بتعهد أحفاده عند غياب إبنه الوحيد .
فقفل صاحبنا - وهو أب شاب لثلاثة أطفال - الى ربوع أوروبا وجامعاتها . أخذ طريق بادية الشام الى بيروت في حافلة

معدة للسير على رمال الصحراء ، وأبحر من هناك الى الاسكندرية فالى قارة أوروبا في باخرة ايطالية كانت تعرف باسم "اسبيريا" وبلقب "عروس البحر الابيض". فشقّت "اسبيريا" عبب البحر المتوسط وعبرته في مدة اسبوع من ضفاف قارة آسيا الى الضفاف الاوروبية ، فرست و أحلّت بالسفْر المشوق شاطئا ممرعا لدى خلجان الصدفة الفريدة الشهير ، مدينة "فينيسيا" (البندقية) الجميلة . وسرعان ما اعتلى صاحبنا الشاب الطموح برج الاجراس قبالة كنيسة "سانت ماركو" الاثرية ، فأطلّ من فوقه على منظر يخلب الانظار لجملة الجزر الفينيسية المنبثة مدّ البصر على دأماء متموجة متلألئة من مياه البحر الابيض . هذه براعة الاستهلال من جولته الاوروبية . وسنقرأ في الفصل التالي تفصيلات ما شاهد وما خبر في تلك الجولة ، ولا سيما حصيلة تجاربيه في مجال العلم والدرس والحرية الجامعية .

الفصل الخامس

شرقي في الغرب

إبتدأ الفتى المستغرب حياته في الغرب. تنعّم أكثر من اسبوع بمباهج الماء والسماء والارض على شطآن "ليدو" و"سانت ماركو" وقد أخره تأخيرا جميلا عن المسير اضراب من عمال السكك عن العمل. وتحاشى هو الفنادق يوم اذ حلّ بفينيسيا؛ لقد اكسبته خبرته في مصر مهارة الاهتداء الى منزل في مساكن الاسر الاوروبية. وقد اهتدى في حي "سانت ماركو" الى منزل عند اسرة "سنيور مولّيني"، رجل كهل مطمئن يتكلم الفرنسية والانكليزية ويدل النزيل في داره دونما تكلف نحو ما يحتاج اليه المسافر من المطاعم والمصارف ومكاتب السفر وما يروم من المشاهد ومواضع الآثار.

ولما علم الفتى بعائق الاضراب
ذهب الى مصرف لاستحصال "الليرات" الايطالية
بصرف بعض ما ملك من صكوك المسافرين
"بالجنيه" الاسترليني ، إذاك تبينت له فداحة
الغلاء في ايطاليا ومدى ارتفاع الاسعار .
لكنه تبيّن بعد يومين حالا اخرى ما كان
يتوقعها في دولة اوروبية . ذهب ليلا الى
ميدان "سانت ماركو" ليرى كيف يحيى الناس
حياتهم الصاخبة وهم شتى ومجتمعون . واذ
انعطف الى ركن شبه معتم من حول الكنيسة
الشهير فاجأه رجل بتحية متعجلة أعقبها
في همسة الخائف بدعوة الى صرف الدولار
أو الجنيه الاسترليني بسعر صرف بالغ ضعف
السعر المقرر في المصارف . أجاب صاحبنا ،
وهو ماش مشيته دون توقف ، بأن ليس
لديه ما يصرف . فلما بلغ في تجواله زاوية
شبه معتمة ماشاه الى يمينه سمسار آخر
عرض عليه سعرا للصرف أعلى مما عرض
أولهما ، وطفق يستعجل المزايدة اذ سمع
الرفض حتى بلغ بسعر الصرف ضعفي السعر
المقرر في المصارف. وتنحّى صاحبنا الى الارجاء

المضاءة من الميدان فاذا السمسارة عاملة هنا مبتدرة بالسؤال عن الوقت في جملة رقيقة سرعانما تردف بابداء الرغبة في شراء العملتين الأجنبيتين. ولربّما ابتدرتك بالسؤال عن الوقت ذات جمال منهن تعرض البيع والشراء معا - شراء من العملتين النادرتين وبيعا من خدمات تغري العزاب والمختلمين .

ثم كان اليوم التالي ، ودعا النزيل صاحب المنزل الى احتساء القهوة عصرا في مقهى تجاه البحر تتدفق اليه خفقات انسام عليلات. هنالك تلطف الداعي في سَوق الحديث الى السمسرة غير المشروعة في ميدان "سانت ماركو" على حين خلسة وخوف من رجال الشرطة. والمحادثة جر بعضها بعضا، فذكر المدعو الى القهوة والحديث أن التي في الميدان تتصل بشبكة متشابكة الخطوط ينصبها ويجرها في الخفاء تجار ورجال أعمال يستدرّون بالعملات الاجنبية النادرة مبالغ تربو كثيرا ما يدفعون من فروق سعر الصرف ومن حصيلة السماسرة ، وأن هذه السمسرة منتشرة

في المدن والبقاع جميعها التي يؤمها الاجانب؛ وأن من الشرطة والمسؤولين عن الامن العام منحازين الى بعض السماسرة يرتشون منهم لقاء إغضاء الطرف وفسح المجال لأعمالهم هذه الممنوعة في نظر القانون. وها هو العلم اليقين يفسر ما أخطأ في تفسيره مجرد استنتاج عابر. لقد انتبه صاحبنا قبل يوم الى الحذر والخوف عند بعض السماسرة والإقدام والانطلاق عند آخرين؛ لكنه عزا الحالين الى خاصة الجرأة وتفاوت درجاتها بين الناس. أما الآن فقد حصحص الحق.

وما رام صاحبنا مزيدا من هذه الوقائع والاخبار ولا من المكوث في ايطاليا. لقد ساءه ما رأى من عمل قبيح في بلد جميل. وما ابتغى هو من وجهته الا تحصيل العلم. فكان خيرا له التوجه الى حيث يجد انصرافا الى ما ابتغى. وسبق له استحصال القبول للدراسة العليا في "كلية القانون" من كل من جامعات باريس ولندن ولوزان وموميليي. فتهيأت له الخِيَرة بينها؛ و وجد

عند فكره في الاختيار قليلا من التردد وكثيرا من الحزم. ما نوى الفتى قناعة بما دون مرتبة "دكتوراه" (دكتوراه دولة). وأيقن المنال أسهل من حيث الجهد واقصر من حيث الزمان في لوزان ومومبليي. بيد أنه أراد نيل المرتبة العلمية في جامعة ذات مكانة عالمية (كما يقال) - فهي اذن جامعة باريس أو جامعة لندن.

وهل من مشوق ندَّ عما اشتاق اليه وتاق ؟! وقد ظلّ الفتى قيد يوم واحد من الوصول الى باريس الدكتور طَه حسين أو ليون الدكتور عبدالرزاق السنهوري. بل إن سمعه قد شُنّف من قبل بأنباء الحياة في الجامعات الفرنسية. فلطالما حدثه بها في بغداد عالم مصري من زملاء الدكتور السنهوري أيام دراستهما في جامعة ليون. انه الاستاذ سيد عبدالله حسين صاحب كتاب "مذهب مالك في اصول التشريع الوضعي". كانت الحكومة العراقية قد استقدمته للتدريس؛ والتدريس يجمع المدرسين مختلفا اعمارهم؛

فاجتمع هو وصاحبنا في كلية واحدة نحوا من عامين دراسيين، بل قد جمعتهما جهة وحدة من ثقافتهما الجامعية بمصر و من محادثتهما باللهجة المصرية لليالي السمر ومن صداقة صافية صفاء علم نافع. فالوجهة اذن باريس كما اشتهى.

لكن العطلة الصيفية للجامعات كانت عند منتصفها في شهر آب (أغسطس) الميلادي؛ فرأى الأولى له أن يزور المملكة المتحدة وينظر الى ما فيها من شؤون المعيشة والعلم، فيعود الى باريس عند ابتداء العام الدراسي. وقد فعل، فامتطى قطارا الى باريس، ومنها قفل الى لندن عابرا مضيق "مانش" من "كالي" الى "دوفر". أما القطار بين فينيسيا وباريس فقد سلك مسارا رائع الجمال من ربوع أوروبا: فمن البندقية الى "بادوا" و"فيرونا"، فمناطق الزراعة والبحيرات حتى مدينة "ميلانو" الصناعية، ثم وديان الجبال الممتدة في ايطاليا وسويسرا فشطآن بحيرة "ليمان" الخلابة من "مونترو"

الى "لوزان". ذلك خارج عربات القطار.

أما داخل عربات القطار فلم يكن غير حال من الفوضى وفقدان النظام استعادت في ذهن فتانا المسافر صور حال مماثلة سبق أن عاناها اثناء الحرب العظمى الثانية في قطار بين حيفا والقاهرة - ولا سيما في منطقة العريش. وقال الفتى في نفسه: إنها آثار الحرب بعد أن انقضت، وإنه نصَب الاسفار، وأيّ مسافر لا ينصب؟!

ثم انتهت العطلة فعاد الفتى الى باريس، وأسرع الى الالتحاق بالجامعة، ودفع اجور الدراسة. وكان نازلاً في فندق صغير نظيف غير مبتذل يدعى "هوتيل ستيل" في شارع "كلودبيرنار" على مسافة عشر دقائق من مشي المجد الى كلية القانون. ولقي معاملة مهذبة طوال مدة اقامته من الاسرة التي كانت تدير الفندق، اسرة "مسيو بتي". لكن المقام الدائم قد آن أوانه. فبدأ يسعى الفتى الى الاستقرار ومظانه،

وُيخبر مسالك الحياة والمعاش داخل الجامعة وخارجها ، ويحاول تذليل المصاعب واحتمال شظف العيش . ولم يطل به الوقت كثيرا حتى أيقن اقتضاء الحال "أن يهرب بجلده الى بلد آخر" فرارا من كلفة المعيشة الباهضة - على ما عبّر به زميل له مصري سبقه الى جامعة باريس وعنده راتب شهري اكثر من مثلي الذي عند صاحبنا .

كانت فرنسا تعاني من الآثار الاقتصادية للحرب وهزيمتها النكراء البادئة فيها ، ومن اختلال سياسي أفضت الى تعاقب وزارات لا تستقر ولا تصلح حالا . وكان صاحبنا يعاني من قلة دراهمه المرتبة شهريا بالنسبة الى أسعار ما قبل الحرب ، فكيف بها منسوبة الى اسعار ما بعد الحرب في بلد غير مستقر الاحوال والاسعار . بل لقد غدا واضحا عنده أن راتبه الشهري لم يكن يكفي لغير النفقات الضرورية لنصف شهر . فلم يجد محيدا مدة مقامه عن الوفاء بنفقات النصف الآخر من دنانير

قليلة أوشكت على النفاد كان ادخرها للاحوال الطارئة من مرض أو حاجة غير منتظرة . وقد علم مما خبر في رحلته بإنكلترا أن كلفة المعيشه المقيمة فيها هي على النصف منها بفرنسا أو أقل ، هذا كله أوجب في العقل والواقع الرحيل عن فرنسا وتسبب له . لكنه لم ينتهض سببا لصدود فكري أخذ ينشأ في ضمير فتانا عن الحضارة الاوروبية أو الحضارة الفرنسية كما يدعيها الفرنسيون .

بل قد تسبب لنشأة الصدود أمران آخران من واقع حياة الفرنسيين وسمات الفكر والضمير الفرنسي كما شاهدها صاحبنا في بلادهم واضحا عيانا . أولهما أن غائلة الاستعمار ، استعمارهم شعوبا وبلادا في آسيا وأفريقيا ، ما كانت بدعة شرّ قائمة على منحى شرذمة من ساسة أشرار ، بل نزعة عامة في ضمير الفرنسيين وفكرهم يعتقدها السواد الاعظم من الشعب الفرنسي حسنة من حسنات الرفعة المطبوعة المتوارثة في أعراق الفرنسيين تجاه الضعة المتوارثة

المطبوعة في أعراق الشعوب المستعمَرة. هذه الرفعة المتوارثة عند فكرهم هي المترجمة كما رأوا الى نهضة الحضارة والعلم والدين والقوة السياسية والعسكرية القادرة على استعمار شعوب وضيعة تحظى من المستعمر بنعمة انتشالها من وهاد الحطّة الموروثة الى مستوى عيش عادي هو غاية ما يتحمله استعداد الأغمار والأوساط من شعوب هذه الكرة الغبراء. وكم من مرة أبصر الفتى بأم عينيه وسمع ملء اذنيه فرنسيين مدنيين في مهايع باريس ومقاهيها وأروقة جامعتها يجابهون ابن الجزائر والمغرب الاقصى بازدراء واستصغار متعمدين قولا أو فعلا أو قولا وفعلا.

ولقد رأى الفتى صورا لا تنسى من ازدراء الفرنسيين بباريس ابناء شعوب من مستعمراتهم. منها ما حدث ذات يوم من أوائل أيامه بالعاصمة الفرنسية اذ ذهب هو وزميله المصري المذكور آنفا الى مقهى لتناول القهوة وتداول الاحاديث. فلما دخلا المقهى وجدا الى يمينهما أريكتين شاغرتين

جنب منضدة قريبة من اخرى حولها أرائك وكراس عليها نفر من الفرنسيين. وما ان جلس الرفيقان الى منضدتهما - وكان الرفيق المصري هو المتقدم لفارق سن بينهما لا يقل عن عشرة أعوام، فاتخذ مجلسه في الاريكة القصوى الى جهة أولئك الفرنسيين - حتى أبدى اثنان منهم امتعاضا واضحا فاضحا على وجوههما وتحركا بكرسييهما ليستدبرا الرجلين الغريبين الممتعض جلوسهما الى منضدة مجاورة . عندئذ التفت الرفيق المصري ذات اليمين كأن حركة الكراسي هي التي استجلبت إلتفاتته،وما ان مال بوجهه ملتفتا إلا عاجلته عطسة شديدة أعقبتها اخرى حيال مجلس الفرنسيين المتكبرين. وقد دلت العطستان على تفنن المتعطس في احداثهما على الطبيعة احداثا مشوبا بسمة التقصد والاصطناع. فقال له الرفيق الاصغر سنا : ما هذه؟! فأجاب : أما رأيت الى إهانتهم إيانا وقد حسبونا جزائريين؟ فهذه بتلك حذو القذّة بالقذّة وعلى طريقتهم المشوبة ذاتها التي ليس يمكن الاحتجاج عليها

صراحة كما تعلم ؛ أنت جديد على فرنسا
- يا أخي - وسترى عما قريب ما هو أدهى
وأمرّ. انتهى جوابه في توضيح مسلك الرد،
ثم خبرَ المستفهم ما خبرَ فيما بعد. فَظُنَّ
شرا ولا تسأل عن الخَبَر. فليس هَهنا
مجال لتفصيل.

أما ثاني الامرين المسببين للصدود
الفكري عن فرنسا فقد كان ظهور الرشوة.
وليس يخفى أن لهذه المفسدة الاجتماعية جانبها
المادي و جانبها المعنوي. فالمادي منها يتقرر
من حيث القيمة على حسب الاستطاعة
المالية عند الراشين في أيّما مجال من
مجالات التعامل في مجتمع بني الانسان.
ففي وسط طلاب الجامعة و صغار موظفيها
و مستخدميها، و بين الغرباء و بين موظفي
ادارة الاجانب و اقامتهم، ليس يصير
أن تمسي الرشوة متساوية المبالغ مع ما
تجري في أوساط المحتالين و مهربي الحشيش
و الأفيون و أولئك الذين يسهّلون لهم أعمال
الاحتيال و التهريب. فلربما اكتفي من طالب

جامعة بحلب من السكائر المستحبة يقدمها الى موظف أو بورقة من عملة الفرنكات يدسها في جيب مستخدم. أما المعنوي من الجانبين فالخسة فيه مجنية مهما قلت أو كثرت مقادير الرشوة أو وقائع تعاطيها. هذا، ناهيك عن مشاعر الجفوة و الصدود و الامتعاض تنشئها ظاهرة الرشوة لدى الاعزة نفوسا الذين يمقتون مساقط الخسة ويعانون من اهمال المرتشين الاعمال الرسمية في حقهم لينجزوا للراشين ما يريدون متى ما يريدون؛ ثم ناهيك يومها عن مشاعر فتانا المستغرب الذي طالما استعظم شأن اوروبا وحضارتها وهفت نفسه الى فرنسا وامسيات باريس.

وبعد كل هذا الذي خَبُرَ الفتى وشاهد لم تبخل نفسه على فرنسا بالتعلل لظاهرة الرشوة وارجاعها الى كون المجتمع الفرنسي مهزوزا. لما آصابه من أهوال الحرب، لكنه أخفق في التماس المعاذير لذلك الجنوح الراسخ الى الاستعمار وكونه نزعة شعبية متأصلة في النفوس. وأيّ تناقض في واقع

الأمر أشد وأقبح من ذلك الذي في خلائق امة تنادي بشعائر الحرية والعدالة والمحبة في الارض وتمعن أيّما إمعان في قهر شعوب وغصب أموالها و سلب حرياتها ومعاداة دينها وإهانة كرامتها الى حد المنع من استعمالها لغة الآباء والاجداد !! سبق ان كان الفتى على خبَر مما صنعته الحكومة الفرنسية في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، وعلى خِبرة مما صنعته الحكومة البريطانية في العراق والاردن وفلسطين ، وعلى يقين من أن مخازي الحكومة الايطالية في ليبيا لم تكن أقلّ شناعة من تلكم التي إرتكبتها الدولتان الاوروبيتان الاخريان في مستعمراتهما. لكن الذي كان قد نَدَّ عنه فكره وعلمه واستنتاجه قبل مقامه في البلاد الاوروبية إنما كان ما وجده عند المقام بها من أن نزعة الظلم والاستخراب المسماة استعمارا هي متأصلة في الامم الاوروبية ما ملكت منها الدولة والقوة العسكرية القديرتين على الاستعمار ، وأنها معدودة ومعتدّ بها عندهم من بين مقوّمات الحضارة الاوروبية

الحديثة. بل لقد رأينا في الفصل السابق من هذا الكتاب كيف كان الفتى قد تسارع من قبلُ الى خطأ الاستنتاج وخطل الرأي في شأن أوروبا حضارة وشعوبا، فحَسِب الجن ملائكة وساسة الحكومات وحدهم شياطين الإنس. ولعل قلة الخبرة وحداثة السن عهدذاك هما اللتان كانتا جعلتاه يغفل عن السرّ استكنهه شاعر عربي في خاصة اناس وشعوب من هذا القبيل:

الظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم.

وسواء وجد الفتى نفسه متقدما أو متأخرا في استكناه خصائص الامم والحضارات، فان ما أسلفنا ذكره من انخفاض راتبه الشهري و ارتفاع كلفة المعيشة في فرنسا قد اضطره على مبارحة تلك البلاد - و لا سيما بعد أن استقصى مطاعم الطلبة المرتبطة بالجامعة فألفى رخص الاثمان فيها راجعا الى رداءة الطعام الى حد الصعوبة في

ازدراده احيانا كثيرة، و أيقن استعصاء التحويل عليه للاقتيات أياما بَلْهَ أعواما .

صحا القلب عن سلمى و أعرض باطله
و عُرّيَ أفراس الصبا و رواحله .

فارتحل الى لندن اثناء عطلة رأس السنة الميلادية ، عابرا خليج "المانش" هذه الكرة من "لوهافر" الفرنسية الى "ساوثمبتون" الانكليزية في باخرة بريطانية دافئة مطمئنة العبور طوال ليلة قارسة من ليالي الشتاء . وما ان دخل الباخرة حتى تغير كل شيئ حوله : الجوّ والطعام واللغة والكلام والمظهر والأفهام وبرود الانكليز بين سائر الانام .

اسرع الفتى الى سرير المنام ؛ فوضع الخد على المخدة وقسّم الفؤاد بين بلاد وأيام . لقد رأى الانكليز وديارهم من قبل ؛ وضاقت أنفاسه "بوخَم" لندن اذ الرؤية مداها ذراع أو صفر . لا جَرَم أنه هرب من عسر الغلاء الى يسر

الرخص، الا أنه في غير ذلك قد ترك منزلا صعبا الى منزل أصعب. بارح دولة استعمار قد خذلته المعارك الى اخرى منتصرة في الحرب هي أطول باعا وأقوى ذراعا وأرسخ قَدَما وأخبث نُظُما في صناعة الظلم والاستعمار. هنالك الوقاحة الفرنسية المظهرة ما في نفس الصاحب الظالم الوقح؛ وههنا النفاق الانكليزي الكاتم شرّ ما في نفس الصاحب الظالم المنافق.

كلهم في الظلم غرب
كلنا في الشرق نهب

بيد ان التي عاين هو من أحوال اخوة الجزائر و المغرب الاقصى في باريس قد جعلته يخشى أمثالها من المعاملة في المملكة البريطانية المتحدة صاحبة الاستعمار في العراق جهارا في سالف الايام و استتارا أيام رحلته في طلب العلم. و ما جهل الفتى أن وثبة الافعى المتوثبة قد تكون أهون على الرجل من لدغة الحية الصفراء المتناومة الكامنة في جحر خفي. على انه انما جاء

لتحصيل العلم في الجامعة، و ما حسِب الجامعة الا مظنة العلم للعلم و المعرفة للمعرفة. فلئن كان قد خاب ظنه في نزعة الشعوب الاوروبية فان حسن ظنه بالجامعات الاوروبية بقي ثابتا لم يتزعزع ، وعند هذه الهدأة من افكاره وافاه الشعور بالطمأنينة ، فغشيه نوم عميق مريح لم ينقطع حتى صحوة الفجر اذ الباخرة راسية في ميناء "ساوثمبتون" .

فمن البحر الى اليابسة ، حيث استقلّ قطارا سريعا بلغ بالرّكب في بضع ساعات محطة "ووترلو" في قلب لندن ، فاستأمن الفتى حقائبه في "مخزن الودائع"؛ ثم خرج الى الشارع الرئيس فألقى نظرة ذات اليمين الى حيث مسرح "أولدفك" الذي كان رآه في رحلته الاولى (والمتميز في عرض مسرحيات شيكسبير) ثم مضى ذات الشمال فعبر جسر "ووترلو" متجها صوب "سنيت هاوس" ،أو مقر مجلس الجامعة وادارتها العليا ، وعلى مقربة من هذا المقر ومن مدارس

الجامعة حوله نزل في منزل صغير نظيف من المنازل المعروفة هنالك بما معناه "الفنادق الخاصة"؛ وكان الفندق الخاص لزوجين إرلنديين شابين (اسرة مستر موراي) اتسم البعل منهما بالجد في العمل والزوج بالوداعة وحسن الخلق و المعاملة .

وانقضى ما كان بقي من الايام القليلة لعطلة رأس السنة الميلادية ، فذهب الفتى الى ادارة التسجيل العامة بمقر الجامعة كيما يتبين تفصيلات الشروط المقررة لقبول أمثاله في اقسام الدراسات العليا . انه كان يعلم انه انتقل من منزل صعب الى منزل أصعب - كما ذكرنا آنفا. ففي فرنسا قد تم قبوله لدراسة الدكتوراه (و نظامها دبلومان فاطروحة) بناء على شهاداته ومؤهلاته الجامعية السابقة دونما مزيد شروط . وههنا في جامعة لندن افهم قولا وكتابة بأن هذه الجامعة ليست تعتبر أيّ شهادة عالية في علوم القانون من أيّ جامعة اخرى معادِلةً لشهادتها هي (المعرّفة بـ "ايل ايل بي")

في هذه العلوم. فالحائزون غير هذه من المؤهلات الجامعية العالية في القانون لا يتسنى قبولهم للتقدم لمرتبة الدكتوراه (المعرّفة بـ "بي ايج دي ايل ابل"). فالمتعين في هذه الحال هو مجرد تسجيل الراغب في الدراسة طالبا داخليا؛ ويستأنف هو الدراسة ويجتاز ما ينبغي من الامتحانات والاختبار تحت اشراف استاذ معيّن؛ الا أنه لا يقيد بأعوام جامعية بل اذا فاق في العلم فربما اجتاز في عام واحد؛ فاذا أفلح واجتاز اختبار هذه المرحلة عُدّ مؤهَلا للدراسة العليا وعدّت شهادته الجامعية بذلك معادلة للشهادة الجامعية الاولى المشار اليها آنفا من شهادات جامعة لندن.

وعندئذ أيضا ليس يتعيّن القبول لدراسة الدكتوراه. بل يعتمد الامر على تقرير علمي من ذلك الاستاذ المعين؛ فاذ أقرّ كون الطالب ذا استعداد لدراسة الدكتوراه وأوصى بقبوله قبلته الجامعة لهذه الدراسة؛ واذا أقر كون استعداده أوطأ درجة من ذلك

فأوصى بقبوله لدراسة شهادة "ايل ايل إيم" الأدون من الدكتوراه قبل الطالب للشهادة الدنيا. وافهم صاحبنا أن هذه كلها هي من أحكام الجامعة وقواعدها المستقرة ليس عنها من محيد.

واقتحم الفتى هذه المخاضة مكرها لا بطلا. فملأ الاستمارات المقررة في ادارة التسجيل وفي الادارة الخاصة بالشهادة الاعدادية "متريكوليشن"؛ وقدم وثائق ما كان عنده من شهادات عالية وغير عالية. وبعد اسبوع حمل اليه البريد رسالة من الجامعة أوصته بمراجعة الكلية والاستاذ المعيّن، و وثيقة شهدت له بأن شهادته ومؤهلاته المدرسية تعتبر معادلة لشهادة "جي سي ئي" الانكليزية (أي الشهادة الاعدادية)، وانه قد استحق التقدم الى ما يختار من الكليات للدراسة العالية، أي الدراسة الجامعية الاولى. فذهب هو الى الكلية والقسم والاستاذ، و خاض المجرى العلمي من المخاضة الغريبة بعزم جندي مقتحم.

ثم انقضت سنة كاملة مجهدة.

واجتاز الفتى المرحلة وافلح، وأوصى رئيس القسم بقبوله في الدراسة العليا لمرتبة دكتوراه، فتمّ التسجيل ودفع هو الاجور المقررة، عندئذ بدأ يشعر بآثار التعب والرهق والجهد الجهيد، فآثر الابتعاد أياما من لندن ومن جامعة لندن، واختار مدينة "سانت ليناردس" الصغيرة الجميلة الهادئة في الشتاء على الضفاف الانكليزية للمحيط الأطلسي. فلما وصلها كان الجو مطيرا والظلام قد خيّم قبيل الغروب . فأسرع الى فندق اختار فيه منزله، فمطعم تناول فيه عشاءه، ليستروح معظم الطرف الاول من ليلته تلك في مسرح المدينة بمشاهدة المساخر والهُزَيْلى والمضحكات ملء الاشداق لأيّما مسرحية تعرض من مسرحيات "بانتومايم" الخرافية الهزلية المعتاد عندهم عرضها في موسم الأعياد عند انقلاب السنة الميلادية.

وهكذا فُعل. وانه اذ صار على مقربة من بنيان المسرح إنهمرت السماء

مدرارا ، فأسرع هو الخطى ودلف كما دلف سائر الآمّين الى داخل المسرح ؛ ففاتته ملاحظة عنوان المسرحية المعلن بعيدا عن مدلفه على الجدار الممتد الى الجهة القصوى من الباب على الطريق العام . ولم يكترث الى ما فات ليلته ، مادام علم ان ما يعرض انما هو "پانتومايم" ، فليكن العنوان ما يكون . و لازمه عدم الاكتراث حين انتهى العرض عند منتصف الليل ؛ اذ خرج معنيّاً باتقاء البرد والاسراع الى الفندق سعيا تجاه ريح عاصف على شاطئ بحر مزبد تحت سحاب مبرق مرعد .

فاما الممثلات والممثلون فقد أجادوا الأداء قولا وعملا ، فعرضوا أمام المشاهدين خرافة العقل وتفاهة الفكر ومضحكات الجهل ومفارقات الغباء وعقم هذا النمط من الحياة ؛ عرضوها منجلية متجسّدة في الحركات والمحادثات والأدوار المسرحية المنسقة المغدق عليها تدريبا وثيابا وعُدّة ومناظر وأثاثا .

وأما المشاهدون فاستووا في العلم بأن المسرحية كانت من ذلك الطراز الانكليزي الخرافي الذي وصفناه ، كما استووا في

الاستمتاع بها وهي تعرض .لكن الذي لم يكن رأى عنوانها قد بقي طليق الخيال في التماس أيّما مجتمع داثر يتخيل إلصاق هذه الخرافات به من امم جاهلة خالية في عصور مجهولة دالية وبقاع مهجورة بالية ، على أن الخيال لم يسعفه ليلته بأن في حقيقة حال المجتمع الانكليزي المعاصر ما هو أشد اغراقا في السخف والحماقة من خرافات تلك المسرحية ، فأسلم اجفانه الى نوم عميق بقية تلك الليلة العامرة ،

وأعقبها نهار مشرق الجبين أغراه بالتمشي على ضفاف البحر المائج من "سانت ليناردس" الى "هيستنكس". و هاتان قصبتا مدينتين صغيرتين متلاصقتين متداخلتين يكاد يقع عند ملتقاهما المسرح المذكور، مسرح "وايت روك پاڤليون" أي قصر الصخرة البيضاء أو قصر الهضبة البيضاء - اذا شئت ترجمة أدبية. فلما حصل قبالة القصر، لا يفصله عنه الا عرض الطريق العام المترامي على الضفاف ، إلتفت ذات الشمال ليلحظ

عنوان المسرحية معلنا في مكانه على واجهة القصر أيّما اعلان، وانه اذ أبصر العنوان كَرِبَ ألا يصدق عينيه في ما رأتا فأعاد القراءة حتى أتاه اليقين . إنهم اتخذوا ما اتخذوا عنوانا ليلصقوا محتوى المسرحية من الاباطيل والخرافات بامة باقية معاصرة تعدل الامم الاوروبية جمعاء عددا ، و تقطن في قارات آسيا وأفريقيا واوروبا ذاتها، وتسكن جاليات منها في استراليا وفي امريكا الجنوبية والشمالية ، وتنقسم شعوبا ودولا كثيرة لها سفراء وسفارات في قلب العاصمة البريطانية وفي غيرها من عواصم الدول . بل إن المعتدى عليها ذلك الاعتداء انما هي امة لبعض شعوبها أقدم الحضارات المعروفة في التاريخ ، ولها جمعاء حضارة عظمى حديثة لولاها لما رفّت أجنحة العلم والحكمة الى اوروبا لتُصنعَ على عينيها الحضارة الاوروبية المعاصرة ، ولولا ما أبدعت هي لبني الانسان من الارقام الحسابية وعلم الجبر لما قامت في الجزر البريطانية ولا في أوروبا كلها علوم الصناعة وقيم الرياضيات.

لقد ألصقوها بأمة المسلمين في كل بقاع الارض وفي كل العصور،

وبعد كل هذا الذي وصفناه هنا،

ما نظن أن أحدا من قراء هذا الكتاب يستطيع أن يتدنى بتصوراته ابتغاء تشخيص عنوان تلك المسرحية الى حضيض الخسة الفحشاء قبع فيه أولئك الانكليز الذين اجترحوا إهانة العنوان وإهانة الانسان. فلنذكر الآن ما رآه الفتى المغترب يومئذ بأمّ عينيه على واجهة قصر المسرح - وناقل الكفر ليس بكافر. إنه اسم "القرآن" - صدّق أو لا تصدق - جعلوه عنوانا لمسرحيتهم تلك المؤلفة من الخرافات والمساخر والهُزْلى. وإنهم، لكيلا يذهب الوهم بأحد الى ان المراد ربما يكون شيئا آخر غير قرآن المسلمين، قد كتبوا القرآن هكذا " AL-KORAN " محتفظين بلام التعريف مع الاسم على الرغم من أن قواميسهم تدونه مجردا من الهمزة واللام. هذا ما حصل

في عالم الواقع لا في عالم الاوهام . و نترك للقارئ، أيّا كان دينه ومذهبه ومعتقده و منحاه، أن يحكم بنفسه في شأن قوم عمدوا على تلك الشاكلة الى تدنيس اسم كتاب من الكتب المقدسة المعظمة المعروفة عند كل الشعوب من حول الارض .

أما ما نذكره هنا فأمران نعبر عن أولهما - وهو أمر ينكشف عند التأمل في شنيعة كهذه - بجملة استفهامية هي من تلك التي يغني فيها السؤال عن الجواب: على أيّ مستوى - يا ترُى - من الثقافة والخُلُق واستقامة الطبع والفكر هم أولئك القوم الذين تعمد خاصتهم الى مثل تلك الصنيعة النكراء فتستسيغها عامتهم دونما أدنى تورع أو تدبر أو اعتراض أو حياء؟! ونوجز ثاني الأمرين بما تحققه الفتى المغترب وهو هنالك من أن قصر المسرح انما كان مرفقا عاما تملكه الحكومة المحلية ويديره ويوجهه مجلس من مجالس الادارات البلدية العامة في محافظة "سسيكس"، وأن هذه المجالس

١٠

تضم عادة بين أعضائها موجهي الفكر وممثلي الكنيسة ورجال العلم والتربية. وليس في الامرين -كما ترى- غير ما يزيد الطين بلّة.

ولنعد الآن الى حال الفتى بعد وقفته المحيّرة حيال قصر المسرح. انه لم يجد غير ان يتابع مشيته على الشاطئ الاطلسي، حتى اذا وازى قلب مدينة "هيستنكس" القديمة انعطف اليه شمالا. هنالك وجد المكتبة العامة مفتوحة الابواب؛ فاعجب بحرص القوم على ذلك في يوم من أيام العطلة؛ ودخل ينظر الى غرفها القديمة و كتبها الحديثة، و دار دورة أمام الرفوف في قاعة المطالعة فوقع نظره على كتاب عنوانه "دائرة معارف المصطلحات الدينية" - اذا ترجمناه من الانكليزية الى العربية. أخذ الكتاب وجلس ليطالع، فألفاه جزءا واحدا وسيطا لعله سمي بدائرة معارف لاحتوائه على مصطلحات الأديان المتعددة المعروفة في هذا العصر ولترتيبه على حروف الهجاء مثل القواميس. واذ كان تثقيف ابناء الشعب أهمّ مقصد من مقاصد

مثل هذا الكتاب فان الجهود تضافرت كما تتضافر دائما في اعداده واتقان طبعه ونشره ، في المكتبات المحلية العامة ليصبح مصدرا من مصادر الثقافة العامة الشائعة بينهم ، وأراد الفتى اختيار كلمة يقرأ في الكتاب حيث هي ، فآثر اسم "محمد" النبي الذي اليه كان قد اوحي الكتاب المقدس المهان اسمه عند هؤلاء القوم في قصر المسرح ، لينظر ماذا يقولون فيه على صفحات قاموسهم العلمي الثقافي - عسى الصدق أن يوجد عند مظانه. واستفتح المطالع البريء كتابهم عند كلمة "محمد" فاذا بالكتاب يصفه بنص هذا معناه: كان طفلا يتيم الابوين بمكة ، وشبّ فقيرا معدما ؛ عمل لغيره في التجارة عسى أن يكسب رزقه فما أفلح ؛ فلما أخفق انقلب مشعبذا واشتغل بالشعبذة طوال حياته. هذا ما ذكر النص وقرأ المطالع . ولسنا نخال قارئا من قراء هذا الفصل ، سواء كان مؤمنا أو غير مؤمن بكون محمد نبيا من الانبياء ، يخفى عليه ما في ذلك النص من كذب وبهتان

متعمدين ومن كفر بمبادئ الحق والصدق
والنزاهة في وصف احوال الامم و وقائع
الماضي وتاريخ الرجال. أما الفتى المغترب،
وقد قضى سحابة نهاره ذاك يرى ويقرأ تلكم
الأباطيل في ديار البريطانيين، فنهض وأعاد
كتاب المكتبة الى موضعه،ثم بارحها وهو
يتلو من القرآن المجيد هذه الآيات الثلاث:
"إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين
في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم
شر البرية". "ما كان محمد أبا أحد من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"."إن
الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين
آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما".

ثم انسلخت أيام العطلة، وعاد
الفتى الى لندن وجامعة لندن،وهو مستشرف
حالا أحسن من ذي قبل. لقد هيأ له اجتيازه
المرحلة الدراسية السابقة وتقدمه لمرحلة دكتوراه
ان يطلب من وزارة المعارف ببلده الحاقه
بالبعثة العلمية لنيل تلك المرتبة. فقد كان
من قبل ذلك موظفا مجازا اجازة دراسية

وفق احكام قانون الخدمة المدنية القديم بالعراق ، اذ كانت درجات الوظائف و مقادير الرواتب شحيحة مقدرة على مقاييس الاسعار والاحوال الاقتصادية والمعاشية قبل الحرب العظمى ، واذ كانت الاجازات الدراسية بنصف الراتب الشهري دونما مخصصات و مخصوما منه مبالغ الاستقطاع المقرر عن التقاعد (أي المعاش). وما ساوى قطّ نصف راتبه الوظيفي ذاك غير اثني عشر جنيها استرلينيا ونصف جنيه ، في حين أن المخصصات (ـ وهكذا كانت تعرف ـ) المقنّنة لطلاب البعثة كانت تبلغ أربعين جنيها في الشهر، مضافا اليها مبلغ سنوي لاقتناء الكتب والملابس . (وانه لمن المضحكات أن المدرس في المعاهد العالية اذا توجه عهدئذ الى الدراسة العليا موظفا مجازا منح جُعْلاً شهريا أقل من ثلث الجُعْل الممنوح لطالب حديث التخرج متوجه الى الدراسة ذاتها) . والحق ان أنصاف الرواتب، تلك المقتورة ، لم تكن لتمكّن الفتى من مواصلة الدراسة قبل التحاقه بالبعثة العلمية، لولا العون المالي الذي أمدّه به والده الكريم

- جزاه اللّه عنه خيرا ،

وفي كلتا الحالين ، حال الاجازة الدراسية وحال البعثة العلمية ، بني الانفاق الحكومي على عقد ألزم الطالب باعادة المبالغ كافة المصروفة اليه اذا أخفق في الحصول على الشهادة المطلوبة من الكلية والجامعة المعيّنتين في العقد. وابرم عقد البعثة مصدقا من الكاتب العدل ، مشفوعا بكفالة كفيل ضامن يلتزم بالاداء عند عجز المكفول المدين عن الوفاء ، قابلا للتنفيذ الفوري على الطالب وعلى كفيله دونما احتياج الى محاكمة وقضاء ، ومشتملا بعد ذلك كله على شروط أشبه بما تتضمنه عقود الاذعان. وقد أذعن الفتى الطالب ، واثقل كاهله بالتزامات تعاقدية فيها اليسير والعسير ؛ وأنشأ يتخوف من مغبة التنفيذ على كفيله الصديق الطيّب الأمين ان أخفق هو في نيل المرتبة العلمية المعينة بالعقد ، وهو لا يملك شروى نقير. لكن هذه المخاوف لم تزده الى الدراسة ميلا. فان الجد في العلم قد سبق أن اصبح دأبه في المعاهد العالية

طالبا ثم مدرسا. ولطالما ذاق السعادة الروحية بنيل النهايات القصوى من درجات الامتحانات والفوز بثناء الاساتذة علنا في قاعة الدرس أو بلاغا الى العمادة. على أن تلك المخاوف قد اضطرته فيما بعد الى الخروج عن جادة العلم السوي، وأزعجته -كما سنرى في الصفحات التالية من هذا الفصل والذي بعده- الى أزقة عمياء انعدمت فيها الحرية الجامعية فانعدم كل لون من الوان النزاهة في البحث والصدق في الاستدلال والنزوع الى استجلاء الحقائق العلمية ناصعة الجبين. وما كان بحسبان الفتى يوم ابرام العقد أن حمامة البحث العلمي الحرّ من شأنها أن تتناسخ في كلية القانون بجامعة لندن الى عنقاء.

وما لا يكون في الحسبان لا يخشى منه الفتيان. فالمهم عند الفتى يومئذ أنه قد استقر من حيث التحصيل بتقدمه الى مرحلة دكتوراه في جامعة مرموقة، ومن حيث نفقات التحصيل بالمورد المنتظم من وزارة المعارف (التربية والتعليم) لطلاب البعثة العلمية. وقد

مكّنه هذا الاستقرار من بذل شيء من وقته ، خارج نطاق الجامعة والمعلمين والمتعلمين ، في التعرف على أحوال العامة من الشعب البريطاني واستيضاح ما يعمهم في مجال الثقافة والفكر والضمير. وانه من أجل الاستزادة من هذه المعرفة والخبرة سكن عاما ونصف عام في اسرتين تباعا ، الاولى لعامل في ادارة الهاتف ، والثانية لموظف في احدى الشركات المختصة ببيع الآلات الموسيقية ؛ ثم شارك رجلا أعزب شقّته المتعددة غرفات ، و كان رساما ويعمل في مجال "التزويق" (ماكياج) بمسارح لندن. واتسعت حوله فرص التعارف والمجالسة والمحاورة ، فوسعت ذوي قربى واصدقاء لهؤلاء الذين ساكنهم بالحسنى وفارقهم بالحسنى .

وتلطف معه الاستاذ المشرف على دراسته فقاده الى جماعة دعاة الى دينهم ، فيهم الطبيب والمهندس والكيمياوي والمدرس وأهل اختصاص بالتبشير من رجال

ونساء منصرفين ومنصرفات الى أعماله داخل بلادهم وخارجها. واعتادت الجماعة سياحة صيفية نحوا من عشرة أيام في أواسط آب (أغسطس) يقضونها في ربوع مدرسة "ويستنبرت" الجميلة بمحافظة "كلوستر". فاشترك فتانا في تلك السفرة ثلاث مرات متعاقبات. ولكم كانت الربوع مبهجة بحدائقها الزهراء ومروجها الخضراء وغاباتها الفيحاء و قصر مشيد في جنة عالية، وبرفقة سفر وسياحة متعاطفين وتتبرع الفتيات الشابات فيهم بإعداد موائد الطعام تزيد من طيب مذاقه حلاوة البسمات. وهل أتى بين الرفقة حديث لم يكن ذا شجون يفهم من يسيره الكثير ومن كثيره العسير ؟! وأيّ شيئ أصدق إنباء للفتى مما خبر هو وشاهد بما يدور في عقول القوم وافكارهم ويشيع في ثقافتهم وعاداتهم و أعرافهم ؟

وما كل ما يعلم يقال ؛ ولا في هذه الرسالة متسع لكل مقال. فنكتفي ههنا بالاقتضاب عن الاطناب، ونختار مما جمع المجرِّب

الغريب فصل الخطاب ، السواد الاعظم من أهل هذه البلاد أقوام محبون لاوطانهم؛ مطيعون لاهل الحل والعقد في كنائسهم؛ مجدون في أعمالهم؛ مستطيبون من أطايب العيش ما يسعهم؛ معتقدون أنهم أفضل مَن على الارض في أفضل بقعة من بقاعها، وأن لهم بذلك حق استعمار الامم الضعيفة المتخلفة في آسيا وافريقيا ، ولاسيما المنضوية منها الى حظيرة " الاسلام " المقوت عندهم المتطيَّر من اسمه ورسمه ، وأن لهم الحق في الاستغلال والافادة من الاعيان والمنافع والثروات الطبيعية المتوفرة في بلدان تلكم الامم المتخلفة ، استغلالا حلالا طيبا راجعا الى أحق مستحِق وأعظم مستأهل. ثم إنهم مستيقنون - بعد كل يقين - أن تلكم المعتقدات وما يتصل بها من شؤون واحوال واعمال إنما هي حقائق مستقيمة ومبادئ سليمة للحياة و الحضارة على وجه الارض .

فاذا خرج خارج من الشعوب على هذه الحقائق والمبادئ - كما فعلت

العرب وغير العرب في بعض الاقطار التي سبقت لها الحظوة بنعمة الاستعمار - فان الحكمة والعدالة وواجبات الحفاظ على الحضارة تقتضي إرجاع من سوّلت له نفسه الخروج والتمرّد الى جادة الصواب. ثم انهم يرون الإرجاع الى الجادة تختلف وسائله باختلاف الأماكن والأزمان والأوضاع الدولية : فمنها القمع بطُرُقه في مكان الغائلة ؛ ومنها إحداث الاضطرابات والفتن بين الخارجين المارقين انفسهم ،أو بينهم وبين بني بجدتهم أو جيرانهم، حتى يعودوا الى الرشد؛ ومنها الاحتلال واستعمال القوة العسكرية ؛ ومنها نبذ الانماط القديمة من الاستعمار وابتكار انماط جديدة تُرْسَم على صورة مذاهب فكرية واجتماعية وأدبية، وتشاد على دعائم اقتصادية وتجارية محكمة التأسيس لآماد بعيدة ، وتطلى بزينة الصداقة والتعاون وتبادل المنافع بين الأنداد ابتغاء نعمى الحضارة الانسانية المعاصرة وإخصابها لمزيد ازدهار. تلك هي زبدة ما تحقق الفتى وهو بين ظهراني أولئك الاقوام .

لكنه كان يشم رائحة التمييز العنصري من خلائقهم ولا يستطيع الجزم به والوصول في حقه الى برد اليقين. القوم من اعرافهم العناية بالقطط والكلاب والاعلان عن محبتها؛ وهم اذا ذكرت مجافاة السود في الولايات الامريكية المتحدة تباهوا بأن "الديمقراطية" انما تنال صافية في الجزر البريطانية منبعها وموطن أعلامها الطيب الشريف؛ فكيف السبيل الى الجزم بنزعة التمييز العنصري عند أهل "الديمقراطية" والرأفة بالحيوان؟ لقد شم روائحه، وما عزاها الى نزعة متأصلة. حتى اذا جاء النزعة الدفينَ يومُها انفجر التمييز العنصري، لا بل اندلعت العداوة العنصرية، في حي "نوتنك هل كيت" لصق حي النبلاء "كينزينكتن" وعلى مقربة مشي على الأقدام من دار "ونستن جيرجل" رئيس وزرائهم المخضرم عهدئذ الشهير بالمنتصر في الحرب العظمى الثانية. وويح ابن أرفدة الفقراء في نفرهم القليل بدار الغربة اذ داهمهم السادة ابناء البيض بالحجارة والهراوات واللبِن

المفخور والمُدى والحراب، وبسلاح أشد فتكا من هذه كلها، سلاح الكثرة الهائلة في وطنها محفوظة بعشرات الملايين من أبناء الوطن .

وقد أحسن الانكليز دوما صناعة الترقيع الجميل لأيّما فتق كاشف عورة ثوب خَلِق، فبادر مرقّعون منهم الى الفتق الجديد أحدثته معارك أبنائهم حتى انكشفت عداوة آبائهم العنصرية للسودان خلل الوسط المفتوق وراء ثوب النفاق الانكليزي السابل، ولقد أظهر المرقعون براعتهم فاستعملوا فيه فنّين : فن النكير على شبان حمقى دفعهم نزق الشباب المعهود في كل بلد الى حركات من حيث لايعون انها تناقض مبادئ الحرية والديمراطية المتوارثة في بلادهم، وفن توجيه السودان الى ضرورة الإقلاع عن فواحش الاعمال ومقابح الاكنّة يشتغلون بها ويعتادونها، لان خبراء علم النفس الاجتماعي قد توصلوا الى أن صنيعة السودان هي التي استثارت نزق البيضان فوقعت وقائع الخروج عن سنّة هذه الاوطان .

هنالك ازدانت الاذاعة والصحافة بخطب الفصحاء ومقالات البلغاء من اصحاب الاختصاص في علوم النفس والاجتماع والطب و القانون والسياسة ، ومن الفنانين والادباء ومحرري الجرائد والمجلات ، فقلبت حوادث العدوان العنصري في قلب لندن الى مهرجان لتمجيد البريطانيين واطراء خلائقهم ومذاهبهم وفلسفاتهم المشبعة بحب الانسان اينما كان وحب العدالة والحرية في كل زمان ومكان. وما كان اولئك السودان المساكين غير أبناء مستعمرات بريطانية دفع بهم دهاة الانكليز أنفسهم الى المملكة المتحدة ليعملوا بأجور زهيدة في المرهقات من اعمال المصانع وسكك الحديد ، او في المستحقرات عند السادة من اشغال المجاري و كنس الشوارع ولمّ القمامات وازاحة الجليد ؛ ولا اختتم المهرجان العجيب الا بعد ان استتمت في الرأي العام ، وعند المكتفين بسماع الاذاعة وقراءة الجرائد ، حصيلة فكر وتوجيه وَصَمَتِ الملوّنين المغلوبين بوصمة النذالة و الشراسة والظلم ، و وسمت الغالبين عتاة التمييز العنصري بسمات المؤدب الغافر المحب المؤوي من بني

الانسان كل لون و جنس .

و إن في مغرب الشمس لغرائب. فالسالم منها هو المقتفي مسلك المفحص و التمييز و المشاهدة، لا المكتفي بمجرد الخبر المبثوث كيفما اتفق. وقد استقامت السلامة لفتانا من غائلة التمويه و المغالطة في أدب المهرجان لانه إنما قرأ النصوص الادبية بعد أن شاهد مواقع الاحداث، و جال في شوارع "نوتنك هل كيت" مشيا على الاقدام اثناء المعارك، و رأى بامّ عينيه كيف كان الرهط من ابناء الانكليز يهاجمون الفرد من ذوي البشرة السوداء يوسعونه شتما و ضربا و جرحا، حتى اذا طرحوه أرضا مخضّبا بدمائه انفضوا من حوله لكيلا يُروا متلبسين بالجريمة عيانا متى حضرت الشرطة. كل ذلك و الفذّ الاسود المعتدى عليه كان يدافع عن نفسه ما وسعه الدفاع في ثبات وشجاعة وصمت مطبق لا يشوبه طلب النجدة حيث لا منجد ولا نصير. وتناثرت شظايا الزجاج من نوافذ المباني المأهولة بالسودان، تهوي بها الى الشوارع قطع الآجر والحجارة و الحديد

رجمت بها السادة البيض منازل العبيد السود. هذه جرت في واقع الخَطْب والحال، وجرت نقائضها في الخُطَب و المقال.

أما فتانا المتغرب القادم الى هذه البلاد عن شوق وكلف فقد خابت عنده آمال وتبدلت ظنون. ألم نر في الفصل السابق من هذا الكتاب كيف سبق له أن برّأ هذه الشعوب من سيئآت شياطين الاستعمار من رجال حكومتها، وكيف التمس السبل الى محبتها هي وحسن الظن بها قبل أن يعيش بين ظهرانيها. ثم اذا به قد رأى من خلائق هذه الشعوب وسيئآت افكارها وقبائح اعمالها وزيف حضارتها كل هذه التي أجملناها في هذا الفصل وكثيرا مما لم نجمل ولم نذكر. وإنه في خِضمّ تلكم التجارب والحوادث والوقائع قد عانى في نفسه ما عانى من أمل ربا في عالم الخيال فخبا في عالم الواقع والحال، ومن صورة حسُنت في تصور الاوهام فقبُحت في تصديق الحقائق والأفهام. بيد انه اثناء مروره بالقاسيات من

تجارب الحياة لم يتغير على الجامعات بما رأى خارج الجامعات. لقد ظلّ كما كان حسن الظن بالاساتذة الجامعيين وافر الاعتقاد بالحرية الجامعية في أصل القارة الاوروبية وفي هذه الجزر البريطانية.

فلما عاد الى لندن من سفرته في "سانت ليناردس" (تلك السفرة الموصوفة قبل صفحات) بدأ المرحلة الاخيرة من حياته الجامعية، مرحلة اعداد رسالة لنيل مرتبة الدكتوراه، في شيء كثير من السرور والانعطاف الى التتبع والبحث العلمي، ومن الاعتقاد بوفرة الحرية العلمية التامة في جامعة لندن، ومن الاحترام والتقدير للاستاذ المشرف على دراسته ورسالته. فاتخذ هو مكانه في "معهد الدراسات القانونية العليا". وكان الاستاذ المشرف رئيسا لقسم من اقسام القانون ما لبث أن اعتلى مقام الرئاسة العليا للمعهد كله وعيّن في منصب "دريكتر". وههنا قد عمل طالب متطلّع مجدّ، واستاذ مرموق تجمّعت في يديه الرئاسة والسلطة والكلمة النافذة.

وكم كان جميلا أن بدأ الاستاذ

بالصراحة في أول أمر يريده ، فقد قال للتلميذ الباحث ما معناه بالعربية : إن نظم الجامعة تسمح بالاكتفاء من المتقدمين لمرتبة دكتوراه بالبحث وتجميع المادة العلمية من مصادرها لمدة سنتين اثنتين ، لكني أنا لست اوصي الجامعة بمنح الشهادة لأيّ متقدم ما لم يكن قد قضى في البحث مدة ثلاث سنوات هي الحد الادنى عندي ، فاذا كان هذا الشرط يلائمك فاخبرني الآن اوقع البطاقة الخاصة بقبولك ، والا فالتمس جامعة اخرى ، فان لجامعة لندن مزيد اعتزاز وعناية بكلية القانون . هذا ما اشترط الاستاذ. وقبل التلميذ الشرط العلمي على الفور. ووقعت البطاقة واعيدت الى ادارة التسجيل. فأمر الاستاذ تلميذه بأن يطلب الى الكاتبة أمينة سره هو (أو سكرتيرته كما يقولون) تعيين موعد قريب لمقابلته بغية الباحث واختيار موضوع للرسالة المتوخاة. وكذلك صنع التلميذ، فحدد الموعد لما بعد اسبوعين .

وكان الفتى التلميذ قد انتبه اثناء دراسته السابقة في تطور هيكل القضاء والقانون

البريطانيين الى تشابه مثير للبحث بين بعض المقومات الاساسية لهذا الهيكل وبين مقومات الهيكل القانوني والقضائي للدولة العباسية العظمى في صدرها الاول. المتشابهات والمتماثلات من النظامين ذهبت تفصح عن تأثر اللاحق بالسابق منهما في تتابع الزمان وتلاحق النظم.

ما وجد قط في الدولة العباسية وزير للعدل، ولا وجدت وزارة له، بل كانت ادارة القضاء مجموعة الى سلطة القضاء في يد "قاضي القضاة". وفي الدولة البريطانية الحديثة ليس يوجد وزير للعدل ولا وزارة له، بل القضاء سلطة وادارة قد جمعت لقاضي القضاة "لورد چيف جستس".

وما كان القانون في الدولة العباسية مقننا مشرّعا يصدره رئيس الدولة الأعلى بعد اقراره من مجلس تشريعي؛ بل مضى القضاة يستنبطون الاحكام لما بين ايديهم من الدعاوى من مصادر القانون المتعددة استنباطا عامرا بدواعي الاستقصاء والاجتهاد. وها هي ذي المملكة البريطانية المتحدة حديثة العهد بالتقنين والتشريع، وقانونها في أكثره غير مقنن و غير مشرّع ؛ و قضاتها يجتهدون لاقتناص الأحكام من مصادرها العديدة.

و أيضا قد علم الفتى أن استعارات البريطانيين من العالم الاسلامي كثيرة في مظانّ شتى منها علوم الطب و الموسيقى و مفردات اللغة و الاصطلاح. فمن مصطلحات الملاحة و الاسطول البحري ما هي عربية الاصول، و اظهرها لقب "أدميرال" المستعجم من "أمير اللواء". و موسيقى "القِرَب" (فناً و آلات) مستوردة الى "سكوتلندا" من بلاد الشام. و الجبر ما زال يدعى "ألجبرا". و في الكلية الملكية للجراحين مكتبة عربية عامرة بكتب الطب. كل ذلك حبّب الى الفتى الباحث اختيار موضوع من القانون صالح للمقارنة بين ما وجد منه في وطنه هو و ما وجد في بلاد الجامعة التي سيرقى من درجاتها العلمية مرتبة دكتور.

ولسبب من الانتماء الى قسم القانون المدني (والرغبة عن القانون الجنائي) مال الفتى الباحث الى مصادر القانون وفلسفته ليجد في مجالها موضوعا مهما حريا بدقة البحث وصولة الفكر ورسالة بيّنة الرجحان، فاختار موضوع "العرف" من حيث كونه

مصدرا من مصادر القانونين الاسلامي والبريطاني، عالما بكثرة المتشابهات والمتماثلات في مجاله من هتين المجموعتين القانونيتين الفقهيتين . وعند اللقاء عرض على الاستاذ المشرف موضوع الرسالة وعنوانها الناطق عن الموضوع؛ فطلب منه الاستاذ الانصراف الى تتبع خصائص الموضوع المقترح، فكتابة منهاج مفصّل للرسالة مشتمل على ذكر النتائج المتوقعة لما ستحتويه من مقارنات، فتقديم المنهاج إليه متى اكتمل لينظر هو في الامر. وانصرف التلميذ الى ما أمر به الاستاذ، وكلاهما خبير بأن إعداد منهاج من هذا القبيل لا بد أن يستغرق أشهرا .

وخلال الأشهر المقضية في ذلك البحث الجامعي أحاط التلميذ الباحث بما لم يحط به خُبْرا قبلُ من تقاليد الجامعة وطرائق العمل في ادارتها العليا وبين أهل الحل والعقد الناهضين بأمورها العلمية . فقد أصبح يعي استحالة الفوز بالقبول من اللجنة العليا المختصة في رئاسة الجامعة لأيّ موضوع رسالة وعنوانها

لم يقبلهما الاستاذ المشرف؛ ويعي كذلك أن بناء رسالة على اختلاف مع الاستاذ في مقوماتها إذا أفضى الى عدم توصيته بصلاحها للامتحان والمناقشة فمصيره الاخفاق ورفض الرسالة لا محالة. وايضا قد غدا على بيّنة من أن مناقشة رسائل دكتوراه في هذه الجامعة لا تنحصر مقاصدها في تعيين درجة النجاح ، بل هي امتحان يملك فيه الممتحنون - ومنهم الاستاذ المشرف- اتخاذ قرار باخفاق صاحب الرسالة الممتحَن ورسوبه لينهار كل ما بنى الطالب الخائب. أحاط الفتى الطالب بذلك كله. بيد أنه مضى ثابت الجَنان يبحث ويكتب حتى أتم تأليف المنهاج الذي كان أمر به الاستاذ للرسالة المقترحة.

فلما تم المنهاج ذهب ليقدمه الى الاستاذ ، بل الى "سكرتيرة" الاستاذ لترفعه هي اليه ثم تتلطّف بتحديد موعد للمقابلة والمباحثة معه. ومضت مدة،ثم تلطفت هي فحددت الموعد ، ثم كان اللقاء ، حيا

التلميذ استاذه ، فردّ الاستاذ التحية وقال اجلس ، وهو يمد يمناه الى نسخة المنهاج بين يديه. وجلس التلميذ زاعما ابتداء مباحثة وتلقّي علم ، فاذا بالاستاذ يمد المنهاج الى صاحبه يعيده اليه ، ويرفض موضوع الرسالة بجملة واحدة باتّة جازمة. وبدا حصيفا فعلّل الرفض بجملتين قصيرتين هذا معنى نصهما : هذا الموضوع أوسع من أن يشتغل به شخص واحد ، فلا يصلح لرسالة دكتوراه. وهكذا انتهى الامر بكلمات باتات مشعرات بعدم السماح بالبحث والمناظرة. وسرعانما أردف الرفض بأن قال ما معناه : إذهب وابحث عن موضوع آخر ، فاذا وجدت فاكتب منهاج خوضك فيه من مثل ما صنعت ، فان لم تجد فعد اليّ لعلي أجد موضوعا لرسالتك . وانتهى اللقاء القصير بأن حيا التلميذ الاستاذ وبارح غرفته .

•

مضى الفتى الباحث وهو مستغرب استغرابا شديدا من ذلك الاسلوب النادّ عن مسالك العلم والمباحثة والارشاد فيه. وتأمل

علة رفضه الموضوع المقترح المبيّن منهاج
تناوله فما وجدها مبررة للرفض ولا صحيحة
من حيث هي في مجال علوم القانون
والتأليف فيه ، اذ الموضوع ان كان واسعا
حقا كما زعم الاستاذ فأيّ موضوع من معارف
الانسان لا يتسنى تقييده بحيثيات فحصر النظر
في طرف منه أو وجه من وجوهه ؟! لكن
الرفض رفض ، والاستاذ استاذ ، فحريّ بالتلميذ
مجاراته واحترامه والتزام رأيه . وتدبّر الفتى
ما حدث مرات ومرات فما استطاع تبيُّن
علة وجيهة يقتنع بأنها السبب الحقيقي للرفض
وان لم يصرح به الاستاذ المشرف . فلما لم يتبين
انصرف ذهنه الى العبارة الخاتمة من كلام
الاستاذ الموجز "لعلي أجد موضوعا لرسالتك" ،
وظن أنه ربما اختار موضوعا معيّنا يريد
يقحمه على تلميذه . فلما لاح له ذلك قرر
في ذات نفسه أن يرضى بأيّ موضوع يريده
الاستاذ ما لم يخرج عن مجال القانون المدني
ونطاق فلسفة القانون ومصادره واصوله . وان
هو لم يفعل فلربما ضُيّعت سنة دراسية قابلة
ايضا في تأليف مناهج مصيرها الى الرفض .

عندئذ قرر الكف عن التتبع لالتقاط موضوع للرسالة ، والانصراف الى شأن آخر مدة شهرين يصبح بعدهما الرجوع الى الاستاذ المشرف لاخباره بعدم الإهتداء. فالتحق بمعهد عال خارج الجامعة ، وشرع يحضر دروسا مسائية في البلاغة والفصاحة والصوت ، متوخيا تحسين نطقه باللغة الانكليزية واكتساب القدرة على الخطابة والكتابة بأسلوب أدبي انكليزي . وبقي مواظبا على الحضور في الجامعة صباحا ، لكنه كان يقرأ في ما معه من كتب وكراريس في فنون اللغة والبيان. واستهوته هذه الفنون فما ترك ارتيادها في بعض الأماسي بعد أن عاود الانهماك في نظريات القانون ومطولات مراجعه. وانقضى الشهران أو نحوهما ، فطلب الى "سكرتيرة" الاستاذ تعيين موعد لزيارته .

وتمت الزيارة مفعمة الجوّ هذه المرة بالقبول لا بالرفض. ذكر التلميذ عدم اهتدائه حتى ذلك اليوم الى موضوع جديد . فأجاب الاستاذ : أنا قد وجدت لك موضوعا ، إنها نظرية الاجماع ، الاجماع مصدر من مصادر

القانونين الروماني و الاسلامي ؛ فستكون رسالتك بحثا مقارنا و في صميم مصادر القانون واصوله. هذه خلاصة معنى ما قال الاستاذ. و اسرع التلميذ الى الموافقة و ابداء الرضا بالموضوع. و دلّت قسمات وجه الاستاذ على سروره بما وجد من تقبل و اطاعة؛ فاطمأن وقال لتلميذه ما معناه : لك من الذكاء ما كفى لسرعة الانتباه الى جودة الموضوع و اهميته؛ ومع ذلك أرى أن تفكر فيه يومين أو ثلاثة تعود إليّ بعدها بموافقتك النهائية. عندئذ أمر الاستاذ سكرتيرته خلال الهاتف بجعل موعد للاجتماع بعد يومين ، كما أمرها بأن تحضّر حينئذ استمارات الجامعة المعدة لتسجيل رسائل الدكتوراه.

و حضر التلميذ الباحث للموعد، فأخبر الاستاذ بالموافقة النهائية . و أحضرت السكرتيرة الاستمارات، فحشاها صاحب الرسالة الجامعية بالمعلومات المطلوبة؛ وكتب الاستاذ المشرف موافقته و توصيته الجامعة (أو اللجنة العليا المختصة) بالموافقة على موضوع الرسالة

وعنوانها؛ وتولت السكرتيرة إرسال الاستمارات المكمّلة الى الادارة العليا للجامعة. إذّاك بشّر الاستاذ المتفضل التلميذ المطيع بأن الرسالة سيتم تسجيلها ما دام هو قد اوصى بذلك، وان كان ورود الإخبار الرسمي بالموافقة والتسجيل يستغرق عادة بضعة أسابيع. وأمر، وهو ينهي الجلسة، بأن يظل يستعلم التلميذ من السكرتيرة عن الإخبار بتسجيل الرسالة، فأن يرجوها بعد وروده تحديد موعد للقاء الاستاذ.

ثم حصلت موافقة الجامعة وتم التسجيل. فحضر التلميذ عند الاستاذ الذي اكتفى في هذه الجلسة بما يلي من التوجيه العلمي: أنت طالب أبحاث شرقي، فمعلوماتك في القانون الاسلامي أوسع كثيرا من معلوماتك في القانون الروماني؛ ولو كنت طالبا انكليزيا أو أوروبيا لكانت معلوماتك على العكس أوسع في الروماني منها في الاسلامي؛ والآن قد توليت بحثا مقارنا بين القانونين؛ فأتجه الى التتبع والاطلاع في مجال القانون الروماني،

و ان مراجعه متوفرة في مكتبات الجامعة.
وانصرف التلميذ شاكرا الاستاذ جزيل الشكر على هذا التوجيه العلمي النافع. وسُرَّ الفتى لما صار اليه في مسار دراسته، وللتوجيه العلمي المعقول من الاستاذ المشرف؛ وظن انه يومذاك وصل الى ما أراد من يفاع البحث والعلم يصول فيه ويجول بِطِرْفٍ ممراح من فكره الآلف مسالك الاستنتاج والملاحظة والبرهان. لقد سُرَّ سرورا بالغا، ولم يدر أن وراء الأكمة ما وراءها.

أكبّ أشهرا على مراجع القانون الروماني حتى تضلّع. قرأ كتبا حديثة الفت فيه، وقرأ كتبا قديمة. راجع مجموعة "جستنيان" وما يعرف بـ "كوديكس". ثم انهمك في أقدم مرجع للقانون الروماني، مجموعة "كايوس"، تلك التي كان حققها وترجمها وكتب تعليقاتها الاستاذ "پوست"، الثبت الشهير المعتمد في هذا الباب. أما النصوص المتعلقة "بالإجماع" مما في تلكم المصادر فقد استظهرها الفتى استظهارا (أي حفظها عن ظهر قلب - كما يقال في لغة

التخاطب المستسهلة). وخلال هاتيك الاشهر ظهر له أمران شغل أحدهما وقته والآخر باله.

أولهما اضطراره الى تعلم اللغة اللاتينية، لغة الامبراطورية الرومانية فالقانون الروماني فالكنيسة الكاثوليكية الفاتيكانية. ذلك لاقتضاء الاستدلال بالنصوص سبق معرفتها عند المستدل؛ ولأن الاعتماد إن صحّ في أماكن على نصوص مترجمة ترجمة مستقرة معترفا بها فإن الباحث المعتمِد ينبغي أن يكون له شأن في اثبات صحة الترجمة أو عدم صحتها متى انجرّت اليها المحاجة ومدافعة الآراء. وان رسالة ذات موضوع مقارن تُقدّم لنيل مرتبة دكتوراه في القانون المدني كان لابدّ لها أن تكتنف ذلك كله. وان مع الاضطرار منافع أحيانا وميسِّرات. فالمؤلفون البريطانيون المعنيون باللاتينية كانوا قد سعوا في تيسيرها لمقاصد القانون بتواليف مثل "لاتن فور لويرس" (أي اللاتينية لرجال القانون). وهذه قد نفعت حقا في تقصير أمد الجهد من عام الى أشهر.

و ثاني الأمرين ، هذا الذي شغل باله، ما حدث فعلا في واقع الأمر من اتخاذ احدى لجنات المناقشة قرارا برسوب طالب متقدم لنيل مرتبة دكتوراه في كلية الآداب ، و من ظهور شأن هذه اللجنات و كونها ليست تتورع في استعمال سلطتها تلك الغريبة. فراح فتانا يسائل نفسه : أيُصرف الجهد و العمر هَكذا، و توضع اللبنات بعضها فوق بعض، و تساق المراحل سنوات تباعا حتى مناقشة الرسالة ، و ساعتها يهدم البناء و تهدر الجهود و تُخَيَّب الآمال ؟! وما ان تسامع بالنبأ حتى زار الرجل المكدود مواسيا و مستخبرا. فقد كان ابن وطنه و أكبر منه سنا ، و مدرسا مثله في بعض المعاهد العالية، وعاش في لندن سنوات قبله ينشد تلك المرتبة الجامعية لمّا يعد في بلده يرقى عادمها درجة "استاذ" و ان كان علامة زمانه.

و تنامى الى فتانا من بعض موظفي السفارة العراقية أن الرجل الراسب غير مبال بما حدث له من إخفاق مهين، لأنه قد انتبه الى انعدام الاستعداد العلمي عنده لإرتقاء تلك

المرتبة العالية من جامعة لندن. ولم يصدّق الفتى المهموم لحال زميله تلك القيلة ولا المتتابعات إثرها بعبارات متعددة ومآل واحد، بل ادرك أنها الغمز واللمز، وانها ما يتسارع الى مجتمع الناس الخاملين من خطل، وانّ لأمّ المخطئ على أيّ حال الهبل.

فلما زاره فتانا وانفردا بالمجلس أنشأ الرجل المكدود يفتح عن نفسه المغالق عند زميله الذي إطمأن هو الى صواب ادراكه واستقامة فهمه في ما كوشف به من حقائق الحال.

قال المكدود: ألم تبلغك المقابح اغتابني بها ابناء وطني الموجودون هنا، وعلى رأسهم الملحق الثقافي بالسفارة؟

أجاب الفتى: دع عنك هذه كلها، فما لمقالهم من تأثير إن أنت أهملته.

المكدود: سواء في الامر اهمالي وعدمه.
فهذا هو عين الجوّ الاجتماعي ساحاط به في مجتمع بلدنا فور العودة، وهذا هو عين الجوّ الرسمي ساعامل فيه بوزارة المعارف. وما أدري ماذا سيقرر في أمر اعادتي الى الوظيفة، وظيفتي السابقة.

الفتى: ستعود الى الوطن وتعمل، ثم تحاول الذهاب الى جامعة اخرى لنيل شهادة دكتوراه -هذه التي أمست تتراءى لي كأنها براءة غفران من الجهل.

المكدود: وهل بقي من العمر - يا أخي - ما يكفي لاضاعة خمس سنوات اخرى في سبيل هذه الشهادة؟ ثم من أين يأتي المال، وقد استنفدنا حقوق البعثة ومدتها القصوى؟

الفتى: أنا عليم بمقدارك في العلم و بمقدرتك في اللغة الانكليزية خطابا و كتابا؛ و ما أراك بالرجل يخفق في مناقشة؛ فهلّا أخبرتني الآن بحقيقة ما جرى.

المكدود: لم يحصل هناك اخفاق في المناقشة بمعنى المناظرة. وإنما اتخذ الممتحنون في ما يسمى بمجلس المناقشة قرارا باخفاق الرسالة في تحصيل قناعتهم باقتضاءها منح مرتبة دكتوراه. والمسبب الحقيقي لهذه النهاية هو الاستاذ اللئيم، واذا شئت فلؤم الإستاذ. ففي جامعات هذه البلاد يتحتم الانصياع التام لمنحى الاستاذ المشرف و آرائه، و الا فالنتيجة هي التي باغتتني من حيث لا تردّ ولا تغيّر. وكنت على سابق علم بلزوم الانصياع، فلم أخالف الاستاذ في القضايا الرئيسة مما في رسالتي. لكني خالفته في بعض المسائل الجزئية الفرعية، ظانا ان الخلاف فيها أمر

متسامح فيه، وما أبدى الاستاذ قطّ خلال سنوات عملي في إمرته أيّ اشارة تنبهني الى سخَطه من الخلاف في الجزئيات. حتى إذا كانت ساعة المثول بين أيدي الممتحِنين، وهي ما تسمى المناقشة، أثار الممتحن الخارجي تلك الجزئيات في قائمة موضوعة أمامه، ومضى الاستاذ المشرف يقول له عند الكلام فيها: كنت قد ذكرت له، أي لي أنا التلميذ الممتحَن، الرأي الصحيح فتمسّك برأيه. هكذا الى أن انهيت المناقشة. ثم بعد شهر ارسلت اليّ الجامعة النتيجة بالبريد مكتوبة جملا قصيرة فيها أن الرسالة لم تقنع الممتحِنين باستحقاقكم مرتبة دكتوراه. هذا ما حدث. ولو أن الاستاذ لم يكتتم ولم ينو شرا لأمكنني تلافي الخلاف قبل ارسال الرسالة الى الجامعة. لكنه لم يبد سوءا بل أوصى بتقديم الرسالة للمناقشة، ثم أبدى ما وصفت أثناء المناقشة. أو ليس هذا من

اللؤم، بل الغاية في اللؤم؟

الفتى: إن في ذلك لعبرة لنا - أيها الاخ . و إني لمواس مهموم لما أصابك . و لقد أحسنت أنت في اظهار عدم الاكتراث عند من لا يفقهون ، و في اخفاء ما أظهرت لي عن الذين لا يصدّقون . و الآن استودعك الى لقاء قريب - ان شاء الله تعالى .

هكذا انتهت زيارة المواساة . لكن رسوب المتقدمين عند مناقشة الرسالة لم تنته حوادثه . فما مضت سنة على حادثة المتقدم العراقي حتى اعقبتها حادثتان مماثلتان اكتوى بنار إحداهما فاضل مصري و بالاخرى فاضل پاكستاني . و ما سمع فتانا طوال سني دراسته في جامعة لندن بحادثة واحدة مماثلة يقضي فيها الممتحِنون برسوب طالب انكليزي . على أن حادثة المكدود العراقي كانت هي الاولى علم بها فتانا أيام انهماكه في تتبع القانون الروماني امتثالا لامر الاستاذ المشرف على رسالته - كما ذكرنا قبل صفحات .

ولما انتهى الفتى الباحث من قراءة مصادر القانون الروماني، ومن استنساخ ما تعلق منها "بالاجماع" على بطاقات البحث والتأليف، طلب الى السكرتيرة اخبار الاستاذ بما تمّ. فاستجابت هي ثم أخبرت الفتى بما أمر به الاستاذ من موعد لجلسة مطوّلة تعقد في غرفته وقت تناول الشاي عصرا، والتلميذ مدعوّ الى الشاي من استاذه. وسُرّ التلميذ المغترب لهذه الملاطفة، وحضر للموعد مستبشرا، فوجد الاستاذ بشوشا يستقبله، وأُتي اليهما بالشاي وما معه فتناول كل منهما قدحا منه وهما يتحادثان بأحاديث عامة. فلما قضي الشاي بدأ الاستاذ يلقي على التلميذ درسا فصيحا بليغا عامرا آمرا كُتب له أن يغدو أطول خطاب بينهما طوال مدة الدراسة والإشراف. وإليك في ما يلي زبدة ما اشتمل عليه ذلك الدرس من توجيهات جازمة حازمة أتحفه بها الاستاذ :-

١- ليست العبرة في رسالة دكتوراه ناجحة بحشد المواد المجموعة وكثرتها، بل

العبرة بمدى استيعاب طرائق البحث الحديثة واستعمالها و الالتزام بها في الرسالة .

٢- إن هذه الطرائق مهمة ، لأنها وليد عقول العلماء في حضارتنا الغربية، ولانها الوسيلة العلمية الوحيدة للتوصل الى نتائج علمية صحيحة .

٣- إن بحوث العلماء الغربيين الجارية على الطرائق الحديثة قد أنتجت في كل فرع من فروع العلم و المعرفة مجموعة من الاسس و النتائج و أوجه التفكير العلمي هي المدرسة الفكرية لذلك الفرع نتمسك بها و نسير على هديها في التدريس و التأليف و مواصلة البحوث. و في كل جيل يوفق لامع من بين العلماء في صياغة مكونات المدرسة الفكرية لحقل اختصاصه في كتاب يصبح المصدر الجامع و الدليل الموجِّه للباحثين و الاساتذة و الطلاب. و الكتاب الذي يمثل المدرسة الفكرية ليس كسائر الكتب ، لانه هو المرشد في العلم و البحث ، فالخروج عن خطّته إنما يفضي الى الخطل و الضياع .

٤- وفي حقل القانون الاسلامي ومصادره تبلورت بحوثنا ودراساتنا المتواصلة في حضارتنا المعاصرة الى مدرسة فكرية مرسومة المعالم واضحة القسمات. وقد برز فقيه ألماني في صياغة مقومات هذه المدرسة الفكرية في كتاب هو غاية في الدقة والجودة وصحة النتائج، وهو الكتاب الذي يمثل المدرسة الفكرية تسير عليها العلماء والجامعات ونلتزم نحن بها هنا في كلية القانون بجامعة لندن. ألفقيه هو "بروفيسر شاخت"، وهو -كما قلت- ألماني الاصل، وقد اجتذبته الجامعات في هولندا حيث يعيش الآن. وان الجامعات الكبرى تستقدمه لإلقاء محاضرة أو محاضرتين يحضرها الاساتذة وطلاب الدكتوراه. فاذا حانت فرصة استقدامنا اياه الى جامعة لندن فسارتب لك موعدا خاصا لمقابلته -هذا اذا نجحت أنت في استيعاب كتابه والسير على منهاجه. أما الكتاب فعنوانه "ذ اوريجنز اف موهاميد ان جوريسپرودنس"

[أي مصادر الفقه الاسلامي، أو مصادر الفقه المحمدي - اذا التزمنا ترجمة لفظية غير موفقة] .

٥- تجد نسخ الكتاب في مكتبة "لوزاكس" مقابل المدخل الرئيس للمتحف البريطاني. فاقتن لنفسك نسخة منها خاصة بك ليكون الكتاب بين يديك دائما. فانك - على ما أرى - إنما تفلح في رسالتك و تفوز باقتناع الممتحنين بمنح المرتبة العلمية اذا أحسنت السير على منواله و استطعت الاهتداء الى مزيد من الادلة لتوكيد نتائجه و خلاصة آرائه .

تلك هي الزبدة ، زبدة ما وجه به الاستاذ المشرف تلميذه المتقدم لنيل مرتبة دكتوراه . فلما أتم الاستاذ درسه سأل عما اذا كان هناك لدى التلميذ المتلقي سؤال أو أمر خاف يستوضحه. فلم يجد التلميذ من جواب وجيه غير أن قال : لا ؛ و شكرا ؛ و سأذهب الى "لوزاكس" لاقتناء نسخة من الكتاب. إذّاك نهض الداعي ؛ فنهض المدعوّ لاحتساء الشاي معربا عن الشكر و انصرف .

انصرف واجدا طيّ مقال الاستاذ المشرف العجب العجاب، و معانيا في صدر نفسه ضيقا شديدا من أن يُجعل هو في أعلى مثابة للدراسة العليا إمّعة تفرض عليه طاعة استاذ في كتابه أو الخيبة إن أبى هو الحجر في العلم والعقل، و من أن يجد حرية البحث والفكر الجامعية موؤودة قبرت في جامعة لندن تحت جبال من كراهية الشعوب الاسلامية وحضارتها العظمى. و إلا ففيمَ تكرار الوعيد وهذا التهديد بالرسوب الأكيد: "ليست العبرة في رسالة دكتوراه ناجحة بحشد المواد ..."؛ "فالخروج عن خطته انما يفضى الى الخطل و الضياع ..."؛ "فانك - على ما أرى - إنما تفلح في رسالتك و تفوز باقتناع الممتحِنين بمنح المرتبة العلمية اذا أحسنت السير على منواله ..."؛ "هذا اذا نجحت أنت في استيعاب كتابه و السير على منهاجه ...".

واشتدت وطأة الحال على فتانا إذ أيقن ألاّ مفرّ له منها غير السير على منوال "المدرسة الفكرية تسير عليها العلماء

و الجامعات و نلتزم نحن بها هنا في جامعة لندن " ـ كما صرّح به الاستاذ المشرف ، فإن العقد المبرم بينه وبين الحكومة العراقية قد نص فيه على الإلتزام بنيل شهادة الدكتوراه من كلية القانون بهذه الجامعة ذاتها دون غيرها، ولو سمحت له الحكومة بالانتقال من جامعة الى جامعة فانه لن يكون إذّاك الا مضيعا جهود السنوات الخالية المقضية في مشاق الدرس و البحث و الامتحان، بل لن يكون إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار. أفليس ترك كلية القانون بجامعة لندن، و هما ما هما في الشهرة والسمعة و المنزلة، يعدّ في حق التارك هروبا من الاخفاق في مقام العلم ـ ولا سيما عند مجتمع بلاده المصروف عن الحقائق بغاشية من الدجل العلمي ؟ ثم أليست جامعات الحضارة الغربية كلها ملتزمة بتلك الخطة لا تحيد عنها ـ كما بيّن الاستاذ المشرف صادقا في بيانه ؟

هنالك ثارت في ذهن الفتى
دوامة فكرية ربما وصفتها منها هذه الخلجات:
أين أنتِ أيتها "الحرية الجامعية"! هل كنت العنقاء فما رأينا، أم الموؤودة فما خطبنا؟ ويا لمرتبة الدكتوراه! حسبناها تنال بالنباهة في الفكر والاجتهاد في العلم والقدرة على التحليل والنقد والاتيان بالرأي الجديد السديد، فالفيناها ههنا تستجدى بخمول الفكر وتحاشي العلم وترك الرأي وخنوع التقليد وراء من لو جُلنا معهم في حلبة العلم لما شقّوا وراءنا الغبار! وأنت - أيها الفتى المجدود - آثِر الخمول على النباهة، والتقليد على الاجتهاد، والخطل على السداد، تفز بشهادة الدكتوراه المفخّمة في البلاد! فان لم تفعل فلك الويل من الحكومة والعباد: فمن أين، وأنت لا تملك شروى نقير، تردّ الى خزانة الدولة البضعة الآلاف من الدنانير؟ وان لم تردّها كما أبرمت استردّت الحكومة من كفيلك الصديق الطيّب الضامن وحجزت أمواله؛ وإن الموت الزؤام لهو أطيب عندك من مثل هذه الحالة.

تلك قد كانت بعض خلجات ذلك الفؤاد المكلوم بفقدان الحرية الجامعية. ثم أخذ ينفّه عن نفسه بنظم أبيات من الشعر الخفيف يسخر بها من هذه المرتبة أو الشهادة قد أيقن انها لذاتها ليست تنبئ عن فضل وعلم. ولطالما ردّد عند لقائه الزملاء الناطقين بالضاد هذين البيتين :-

لقد أصبحتَ دكتورا وشيئا صار مذكورا
فَجُلْ في الناس موفورا وقل إمّا تشأ زورا.

ولقد ذهب الى "لوزاكس" واقتنى نسخة من كتاب الاستاذ "شاخت" - هذا الكتاب الذي فُرِض عليه ليكون ملجأ وملاذا ومنهجا وطريقا لايُحاد عنه. وتصفّح الكتاب فوجده، بادئ النظر، معقد التأليف من حيث تداخل المعلومات وأوجه الاشارة الى المصادر ونقل المستشهد بها من النصوص جملا مبتورات في كثير من الأحيان، بيد أنه لم يستغرب ما وجد. كان

قد قرأ كتب المؤلفين الالمانيين فألفى التعقيد فيها طابعهم، وكفته مثلا أمثل فيه "نظرية الحق" لـ "هيگل" - هذه التي قرأها هو في أحسن ترجمة انكليزية لاستاذ في جامعة "اوكسفورد" توفر على تدريس النظرية نحوا من عشرين عاما. فلما تفحّص الكتاب تبيّن من نقده البهرجَ من الزيف، وتبيّن أنّ التعقيد في ترتيبه ليس بمطبوع من السليقة ولا راجع الى غزارة من علم أو دقة في فهم أو غوص لاستخراج حقائق غامضة، بل أنه مصطنع معمود اليه لإلباس مغالط الاستنتاج ومزخرفات الفِكَرِ لبوس العلم المستخرج بطرائق البحث والاستنباط.

وقد أفضى الاصطناع في الكتاب الى حشر جمل مقضومة، و الفاظ باللغة اللاتينية أو بالعربية المكتوبة بالحروف اللاتينية، حشرا مستجلبا الاستعظام ممن لا يعرفون اللغتين أو لا يعرفون إحداهما. على أن لغة الكتاب انكليزية ذات اسلوب رصين عزاه الاستاذ المشرف المذكور آنفا الى مزيد عون من زوج المؤلف الانكليزية المثقفة وصاحبة

الاختصاص في لغة قومها - على ما قيل.

ولعل المقام يتسع لأسطر تكشف إحدى تلكم الفِكَرِ المزخرفة على سبيل المثال. كلنا يعلم أن تعدد الروايات غير المتعارضة يبعث على الاطمئنان في مجال المنقول من الاحاديث و الاخبار. هذا كذلك، ولا سيما اذا حصل أن نقل زيد قولا لخالد، و روى ذلك القول عن زيد عدد من الاشخاص المعاصرين سمعوه منه فرادى في أزمنة و أماكن عديدة، و روى كل واحد منهم نصّ القول سمعه هو من زيد، و تطابقت النصوص جميعها دونما اختلاف؛ فهذا إنما يدلّ، دلالة قريبة من حدّ البداهة، على صحة المروي ومبلغ الحفظ و الاتقان ضبط بهما زيد مقالة خالد. لكن الكتاب المبحوث في شأنه يذهب الى أن مثل هذا التعدد و التوافق في النقل و الرواية دليل على أن زيدا انما كان كذّابا مختلقا قولا عزاه الى خالد زورا، وإلا فكيف تمكّن من الاتقان في حفظ النص لو

لم يكن النص من قوله هو نفسه دون قول خالد، ثم الكتاب يعرض مثل هذا الخطل في الرأي بلهجة المنتشي المتوصل الى جديد من الفهم، ودونما أدنى تورّع ولا انتباه الى أنه خطل مما يمجّه العاقل ويرفضه الباقل من الناس لظهور فساده.

ولو سايرناه فألغينا الثقة إلغاء، وهي الاساس الاول لانتقال العلوم والمعارف من جيل الى جيل، فليت شعري كيف تكون حال مؤلف الكتاب ذاته وهو يروي عشرات من الآراء وينقل عشرات من النصوص رواية منفردة؟ أنتهمه بالكذب والاختلاق ونجعل ذلك اساسا في قراءة كتابه فنأبى حسن الظن بكل ما روى الا ما استطعنا نحن أن نسمعه أو نقرأه من صوت قائله أو قلمه، أم نذهب الى أن رواية فرد واحد هي الصادقة المعتبرة ورواية جماعة هي الكاذبة المرفوضة؟ فهل يحسن أن نشذ عن طريق العلم شذوذا يضيّع علينا منهج التمييز بين

الثقة بمناهل العلم و بين الشك المبني على دلائل يقينية قائمة في موضع الشك ؟ هذا المثال الظاهر ظهور البديهيات انما هو غيض من فيض من معايب الكتاب لا يتسع المقام للخوض فيها. على أن منها اخطاء فادحة في اسس البحث و منحاه في مجال اصول القانون و مصادره؛ و سنلم بما يتعلق منها بنظرية الاجماع في الفصل التالي من " الحرية الجامعية ".

فلما تحقق الفتى الباحث من هزال الكتاب و خطل مبناه و فساد منهاجه ومنحاه إِنْبهَتَ واستعظم المصاب في العلم و في الحرية الجامعية معا. أيُتَّخذ كتاب كهذا خزانة لمذاهب فكرية تفرضها جامعة لندن بوسائل الاستاذ المشرف و سلطانه على طلاب الدراسات العليا الباحثين في مصادر المجموعات القانونية العظمى في عالم الإنسان ؟! بيد أنه تحقق كذلك من أن الخزانة انما اختيرت ، بل انما صنعت ، لتوائم السياسة العليا لهذه و أمثالها من الجامعات الكبرى في عالم

الحضارة الاوروبية. و السياسة العليا لكل حضارة انما تنبثق من خاصتها اللازمة المميزة اياها عما سواها من الحضارات. فالحضارة الاسلامية إذ تميّزت بخاصة الصدق و مكارم الاخلاق اعترفت لكل ما قبلها بجميد ما أخذت منه. و اذا شئت فانظر في كتب ابن سينا و كتب علماء الفلسفة و الطبيعة المسلمين تجد الاعتراف بالجميل لعلماء الحضارة اليونانية في ما أخذ اللاحقون من السابقين، بل الاسلام اعترف للجاهلية النكراء بما استبقاه من قليل خير كان بقي في ازمانها. و الحضارة الاوروبية المعاصرة اذ تميزت بخاصة الدجل و رذائل الاخلاق جحدت عوارف الحضارة الاسلامية في جلّ ما تدين لها به من علوم وفنون ومقومات حضارة.

أما مجال القانون على وجه الخصوص فالمؤلفون المنتمون الى الحضارة الاوروبية يسلكون فيه مسلكين على اجتماع أو افتراق، أولهما طمس الحقائق العلمية لاخفاء

مصدر التلقي عن كل ما هو متلقى من القانون الاسلامي وعلومه، ومن ثَمّ اظهارهم المتلقى على أنه جديد من بدائع الحضارة الحديثة. وثانيهما تزييف الحقائق العلمية أو تحريفها لإرجاع ما هو بديع من صناعة القانون الاسلامي الى مراجع متوهمة أوغير ذات صلة به ما وجدوا الى ذلك من حيلة مهما ضعفت، أو للحطّ منه وتشويه وجهه إن عدموا للإرجاع كل حيلة. وقد مرّ علينا بعض اطراف هذه المناحي المعوجّة في الفصل الثالث من "الحرية الجامعية"، وليس هَهنا متسع لمزيد. وهَذا هو كتاب الاستاذ "شاخت"، أحبوكة اليوم على حباك السياسة العليا المستقرة، والغلالة المصبّغة بُذلت اليها جهود السالفين وأتمّها خير خلف لخير سلف.

وعاودت الفتي غير مرة زوبعة فكرية مثارها فقدان الحرية الجامعية، فكادت تفضي به الى احدى اثنتين من سبل الخذلان المحقق: مبارحة الدراسة العليا

والرجوع الى الشرق؛ أو تأليف رسالته كما ينبغي في العلم ناشدا الصدق والصواب واظهار الحقائق العلمية دونما غش ولا تمويه. وما نجّاه من الخذلان إلا ما كان يتصوره من مشهد كفيله بل كفيليه الطيبين المحسنين الضامنين المتضامنين تحجز السلطة القضائية اموالهما وينفّذ عليهما المنفّذون دونما هوادة مستخلصين دين الحكومة المستحق على مكفولهما المدين المفلس. ثم استقرت نفسه على تناسي الحرية الجامعية المفقودة وعلى مدافعة النفاق بالنفاق. إنهم قد نبذوا الحرية الجامعية نبذا منكرا، واقاموا مقامها القسر الجامعي ركينا مكينا، وارتكبوا هذه العظائم مندفعين خلف واجهة براقة من نفاق المدرسة الفكرية وانضباط الالتزام بها. ففيمَ اذن لا يدافعهم الفتى المكرَه المغلوب على أمره بنفاق موقت من مجاراة تلك المدرسة الفكرية ونفاقها الدائم؟ حتى اذا اجتاز مضايق القسر الجامعي في مغرب الارض، وعاد في مشرقها الى يفاع الحرية

العلمية وأنساهما المطيبات، رأى رأي العلم وقال قول الحق ليس يخشى عليهما ولا على نفسه من غاشية الخذلان. ولقد أحزنه هذا القرار المؤلم المضحك، وواساه أن شرّ البليّة ما يضحك.

وما مضى طويل وقت حتى استضافت جامعة لندن الاستاذ "شاخت"، وأكرمت مقدمه بطنطنة من سابق الإعداد والدعاية لمحاضرة يحاضر بها اساتيذ في الجامعة ومتقدمين في مراحل الدكتوراه. ووفى الاستاذ المشرف بوعده (الذي مرّ ذكره قبل صفحات) للفتى الشرقي الباحث، فاستحصل موعدا من صديقه الضيف المكرّم والاستاذ المعظّم للقاء ثنائي بينه وبين تلميذ مدرسته الفكرية المهديّ اليها بسابق ارشاد من استاذه المشرف. وتمّ اللقاء ذات صباح في غرفة الاستاذ الأخير حيث كان الاستاذان اذ حان الموعد، فقدم المشرف منهما تلميذه الى الاستاذ الاكبر ثم بارح

الغرفة تاركا إياهما لجلسة مطولة. و كان الفتى قد أعدّ في نفسه ما يريد و كيف يريد أن يقول. فالتقف دوره في الكلام اذ وافى، و انطلق يستعرض القضايا و النتائج المخزونة في كتاب الاستاذ عرض ايجاز و احاطة ونسق شيّق من التأييد، و صنع ذلك في نحو من نصف ساعة أو مزيد. فلما أتم هو أبدى الاستاذ سروره لما أصغى اليه معبرا عن ذلك بجملة تقدير بليغ هذه ترجمة نصها: "إنك تعلم حقا كل ما احتواه كتابي". وما رام الفتى إلا أن أقام انطباعا حسنا عند صاحب الكتاب القدوة، رجاء أن ينساب الانطباع الى الاستاذ المشرف فلجنة المناقشة فكلية القانون فجامعة لندن المبتغاة من لدنها مرتبة دكتوراه. وقد وفق في ما رام كل توفيق.

ومضى يكتب رسالته سكونا مطمأنا اليه يحسبه الاستاذ المشرف خير متبع للمدرسة الفكرية في القانون اصطنعوها

اصطناعا وانضووا تحت لوائها. وقد اتّبع اساليب المدرسة فعلا في تأليف رسالته. فخلط الغث بالسمين، وأخذ الدليل المتوهّم وترك البرهان اليقين، ولعب بالالفاظ وفي عرض الوقائع، ليشوّه هذه ويجمّل بعض المنازع، ورأى الحقائق واضحة نصب عينيه، فزوى عنها واتخذ الاباطيل نتيجة بين يديه. ولعلنا استشرفنا الآن ما آل اليه أمر دراسته الجامعية العليا في تلكم الدياجي الفاقدة نيّرات البحث العلمي والحرية الجامعية. فقد رضي الاستاذ المشرف عن رسالته واثنى عليها ثناء عاطرا؛ ثم رضيت عنها لجنة الامتحان والمناقشة وأطرتها وأوصت بطبعها كما هي دونما تعديل ولا تبديل؛ فمنحته جامعة لندن مرتبة دكتوراه في القانون المدني على أمثل ما تمنح عليه الجامعة هذه المرتبة في كلية القانون. ثم بعث الاستاذ المشرف الى وزارة المعارف العراقية صاحبة البعثة العلمية من افرادها الدكتور الجديد (- ولم تكن بالعراق عهدئذ وزارة

للتعليم العالي -) بتقريره العلمي المتعلق بدراسة هذا الفائز وجهوده الموفقة وملكاته العلمية. وقد كان أول باحث من بني العراق ينال هذه المرتبة في كلية القانون بجامعة لندن.

ولعل الرغبة تنساق الآن الى معرفة ما قاله الاستاذ نفسه في شأن الفتى الفائز. هذا ما تجده في الملحق الاول "للحرية الجامعية" المشتمل على نص تقرير الاستاذ وعلى ترجمة عربية للتقرير. فاقرأ التقرير ينكشف لك أن الحياة العلمية المروية آنفا لم تنسج قصتها من خيوط الخيال أو من أوهام قصّاص متخيِّل، بل أنها قصة من واقع الحياة ووقائعها الصعب جرّبها رجل عاش في مغرب الارض يطلب العلم من جامعاتها الكبرى. ثم اقرأ التقرير ينكشف لك أن الرجل لم ينقلب راسبا خائبا يجرّ على قصته المروية ذيول الخيبة والخذلان بمبالغة في عيوب خاذليه أو تجريح فيهم دونما صدق وحق؛ بل أنه انما انتهى ناجحا فائزا مشهودا له بالعلم

و الفضل و باكتمال الملكات ليتسنّم منزلة استاذ جامعي، فأبى أن يكتم الحقائق ويسترزيد من الهالة الزور احيطت بها الاجازات والمراتب الجامعية الاوروبية - ولا سيما تلك التي في مستوى ما نالها هو. و هل التقرير المنقول نصه في الملحق الا شهادة من مانحي تلكم المراتب الجامعية المستعظمة، مكتوبة بقلم الرئيس الأعلى لمعهد الدراسات القانونية العليا.

أما وقد انتهينا الآن مع الباحث الشرقي في عالم الغرب من الشدة الى الرخاء و من الضيق الى الفرج فحريّ بنا أن نختتم هذا الفصل باستظهار أمرين مهمين من خواتم قصته في خضمّ هذه الحياة الدنيا. أولهما ما سبقت الاشارة اليه مرارا من رسالة للدكتوراه و من موضوعها "نظرية الاجماع". أوليس من حق القاريء المتابع قصته، سواء كان متخصّصا أو غير متخصّص في علوم القانون، أن يطلع على نبذة وافية ببيان تلك الرسالة و هذا الإجماع

و ما قيل فيه من حق أو باطل ؟ ثم أليس هذا الموضوع عينه هو المجال البارز قد تعرض في حق صاحب القصة والرسالة الى ما وصفناه من تحريف البحث العلمي و فقدان الحرية الجامعية ؟ وبعدُ فإنه يرى أن مسائل العلوم تنقاد للبيان الواضح و الإعراب السهل والعرض الشيّق ؛ و أن العالم المجلّي في أيّما علم إنما هو ذلك الذي يهيمن على مسائله فهما و تحليلا و تدقيقا ، ويقوى على استعراضها ايجازا و اقتصادا و اطنابا ، و يملك بيانها على أنماط من النسق الجميل كيفما يريد أو كيفما يراد للقارئين متخصصين أو غير متخصصين .

و إنه لمن أجل ذلك كله أن الفصل التالي من كتابنا هذا يعرض عليك زبدة الرسالة و مباحث الاجماع عرضا سهلا شيقا ، و يميز في جلاء و يقين بين الحق و الباطل مما قيل فيها و ذكر . وهنالك يُعرَف مدى فقدان الحرية الجامعية في مجال الاختصاص .

أما الأخير الخاتم من الأمرين فحقيقة اخرى تزيدك قربا من معاينة الاحداث ومشاهدة الوقائع في قصتنا الواقعية الناهدة على صفحات "الحرية الجامعية". فإنك اذ تقرؤها فلست بقارئٍ أنباءَ مؤرخ يروي دولات الامم الخالية، ولا بناظر في كتاب أدب ينقل شعر أبي نواس أو ابن الرومي؛ وانما أنت الآخذ القصة من لسان بطل القصة سجّلها لك بالقلم العجيب على شريط من ناصع الاوراق. فصاحب "الحرية الجامعية" هو الشخص ذاته جرت عليه الأيام والوقائع والأحداث فقصّها عليك كما وقعت ووضعها تلقاء فكرك تشاهدها في عالم الحياة والناس تتوالى أمام ناظريك. وتراه قصّ عليك القصص موثرا اسلوب الحديث عن الشخص الثالث؛ وما آثره إلا لتدخل أنت في أحداثها على يسر ودعة واطّراح تكلّف، ويخرجَ هو من أنانية ضمير المتكلم يواجهك بثقالتها على كل صفحة وفي كل جملة كلام، ثم لينأى بضمير المتكلم المسكين عن أن يغدو آخر الامر

محلا للمثل الدارج المشهور: "حُمّص، بكل قدر ينبص!". أما وقد انتهى السرد الآن فستراه يحدثك باسلوب المتكلم المخاطِب في ما بقي من فصول هذا الكتاب.

الفصل السادس

"رسالة دكتوراه"

ذكرنا في الفصل السابق كيف اختير "الإجماع" موضوعا للرسالة من حيث كونه مصدرا للقانون الاسلامي و مصدرا للقانون الروماني ؛ و أن البحث العلمي فيه قد جرى في محيط افتقدت فيه الحرية الجامعية، فأمسى الباحث عرضة للحجر الفكري ، و الرسالة لكثير من الأباطيل فرضتها المدرسة الفكرية السائدة في الجامعة. فلأجل عرض ميسّر لخلاصة الموضوع ، و تمييز واضح بين الحقائق والأباطيل مما ذكر فيه ، آثرنا تقسيم هذا الفصل الى ثلاثة مباحث : يتناول المبحث الاول الحقائق المتعلقة بالاجماع في القانون الاسلامي؛ و يتناول الثاني الحقائق المتعلقة بالاجماع في القانون الروماني ؛ و يجتلي الثالث أباطيل الآراء المجترحة في هذا الموضوع و المشحونة في تلك الرسالة التي تقبلتها جامعة لندن أحسن قبول و أتمه،

فوفّرت لصاحبها مرتبة "دكاترة القانون" في الجامعة.

المبحث الاول
حقائق الاجماع في القانون الاسلامي

تمهيد :

إقرأ ما تختار من مراجع اصول القانون الاسلامي تجد الاجماع معدودا من المصادر الثلاثة الرئيسة لهذا القانون : الكتاب و السنة و الاجماع . و تعدّدت التعريفات الاصطلاحية للمتأخرين من الاصوليين : فمن تعريف بأن "الاجماع هو اتفاق الامة"، الى آخر بأنه "اتفاق أهل الحلّ و العقد"، الى ثالث بأنه "اتفاق المجتهدين على حكم او أمر".

و لكي نضع أمامك نصا كاملا لواحد منها اخترنا أقربها تعبيرا عما جرى عليه الاصوليون المتأخرون، و هو الذي أدرجه العلامة سعدالدين التفتازاني (المتوفى سنة ٧٩٢ من الهجرة) في صدر مباحث الاجماع من كتابه "التلويح" (ج ٢ ص ٤١) ، و هذا نصه: "هو في اللغة العزم ... و الإتفاق ... و في الاصطلاح

اتفاق المجتهدين من امة محمد - عليه الصلاة و السلام - على حكم شرعي". و كل واحد من هذه التعريفات المتعددة إنما يعرّف نوعا واحدا من انواع الاجماع المعروفة من قبل .

فاذا تجاوزنا عصر المتأخرين، و طوينا القرون الى عصر التلقي و التدوين من عصور القانون الاسلامي، وجدنا "الاجماع" واضح المعالم ثابت الاسس متعدد الانواع غير منحشر في تعريف كذلك لا جامع و لا مانع. فهنا يتطلب التوضيح إلمامة خاطفة بعصور القانون الاسـلامي نرجو ألا تخرجنا من الاختصار الى التطويل.

عصور القانون الاسلامي:

تمتد عهود مجموعة القانـون الاسلامي - و هي احدى المجموعات الثلاث العظمى في عالم الانسان المعاصر كما هو معلوم - في أربعة عصور متمايزة الخصائص ينقسم اليها تأريخ هذا القانون منذ أربعة عشر قرنا من الزمان الى عامنا الجاري، و هذه هي:

عصر التلقي و التدوين؛ عصر الروايـة و التقنين ؛ عصر التقيّد و التقييد؛ عصر الاستعاضة و التجميد . و إنما سمينا كل عصر باسم خصائصه المميزة ـ كما سترى .

العصر الاول:

فقد تميز العصر الاول بأنه كان عصر تلقي القانون الاسـلامي و تدوينه (أعني كتابته) . يمتد هذا العصر قرنين هجريين استغرقهما ثلاثة أجيال تعاصروا و تعايشوا و تعاقبوا و تتلمذ بعضهم لبعض و وفّى منهم الاساتيذ و التلاميذ بتدوين الاحكام و القواعد القانونية و مصادرها و اصولها و سوابقها القضائية وما تعلق بها من اجماع و اختلاف . و تمتاز مجموعة القانون الاسلامي امتيازا فريدا بأن كتب عصرها الاول و مراجعه و موسوعاته باقية على الرغم من حوادث الزمان و آفات التلف و الضياع . وفّى الجيل الاول (وهو جيل الأصحاب من لدن رسول الله ـ صلى

الله عليه و عليهم و سلم - الى العقد التاسع من القرن الهجري الاول) بتدوين المصدر الاول للقانون الاسلامي (القرآن المجيد) و باستظهاره (أي حفظه على الذاكرة). والقدوة في التدوين انما كان المشرّع الرسول ذاته؛ فقد اتخذ نحواً من أربعين كاتبا يدونون من لسانه الشريف آيات الكتاب و سوره فور تنزيلها (و هم المعروفون "بكتّاب الوحي") . على أن من الجيل الاول من عُني أيضا منذ زمان الرسول بتدوين "السنة"، المصدر الثاني للقانون، (و هي في اصطلاح علماء اصول القانون مجموع ما سوى الكتاب المجيد مما تلقاه الجيل من الرسول الكريم من قول و فعل و قضاء و تفسير و علم و إقرار لما جرى بحضرته) .

و وفّى الجيلان الثاني و الثالث، و هما تباعا جيل "التابعين" للأصحاب (المتعايش مع الجيل الاول فالممتد الى آخر العقد السابع من القرن الهجري الثاني) و جيل "علماء الامصار" (المتعايش و المتداخل مع الجيل الثاني

و الممتد الى آخر القرن الثاني و بُعيْده) بتدوين السنة المصدر الثاني و تدوين جملة القانون و اصوله و ما جرى في مجالهما من اجماع و اختلاف. و إن علماء الامصار (و لقبوا أيضا بفقهاء الأمصار و المراد واحد) كان فيهم التابعي و غير التابعي، فعاش جيلهم عيشا جدّ متداخل مع جيل التابعين. و لولا أن الاصوليين و علماء الحديث يأبون حسبان أحد مع التابعين ما لم يكن تابعيا لاقتضى واقع الحال عند علماء الأمصار اعتبار الجيلين الاخيرين جيلا واحدا.

بل إنه اذا كان لقبا "الصحابي" و "التابعي" قد خُصّ أولهما بالاول و الثاني بالثاني من الجيلين السابقين فإن لقب "علماء الامصار" قد عم هذين الجيلين كما عم الجيل الثالث و من تتلمذوا عليهم. فهؤلاء أجيال متعاصرون علّم السابقون منهم اللاحقين. و لُقِّب الذين قطنوا منهم في أمصار الاصقاع الداخلة ضمن دولة الاسلام بعلماء الامصار،

فكان هنالك في كل الاجيال المذكورة علماء المدينة و علماء البصرة و علماء الشام و علماء مصر، و هلّم جرا. و قد الفت كتب خاصة بتراجم مشاهيرهم، مثل "كتاب مشاهير علماء الامصار" لمحمد بن حبان البستي (٢٧٠-٣٥٤هـ) المطبوع بالقاهرة عام ١٣٧٩ (١٩٥٩م) و المقتصر على تراجم اثنين و ستمائة و ألف عالم منهم. ثم ان الفقهاء هم على طبقات من أساتيذ سابقين و تلاميذ لاحقين، كما هو شأن غيرهم من علماء سائر العلوم. و قد خُصّ الفقهاء قديما بتواليف في طبقاتهم، مثل "طبقات الفقهاء" لأبي إسحاق الشيرازي (المتوفى عام ٤٧٦ هـ).

و كأني بالعصر الاول الذي ضم علماء الامصار جميعا قد ختم بمؤلف أول كتاب على وجه الارض في علم "اصول القانون"، محمد بن ادريس الشافعي (المتوفى عام ٢٠٤ هـ).

و نحن في ما نوجز هنا من مباحث الاجماع في القانون الاسلامي إنما نأخذ و نستدلّ

بمراجع العصر الاول و نصوصه، و ذلك منتهى ما يرجوه التحقيق المنهجي اليوم في علوم القانون، و غاية ما يبلغه إثبات المذاهب و الآراء لاصحابها و عصورها. على ان علماء ذلك العصر لم يكتفوا في تفصيل المعاصرة بهذا القدار من العلم، بل ذهبوا يقسّمون الجيل الواحد الى أجيال متحددة على حسب أعمار الاشخاص و تلقي كل تلميذ من استاذه او اساتيذه المتعددين. و صنعوا مثل ذلك لسائر العلوم و الفنون أيضا في عصرهم، مادّين إليها هذا النمط الفريد من الإتقان اتخذوه بادئ الامر في مجال القانون و السنة و رجالهما. و لا يخفى كون ذلك التفصيل خارجا عن نطاق الايجاز المتعيّن في هذا الفصل. فمن أحبّ فليرجع الى "الطبقات الكبرى" (كتاب الطبقات الكبير) لابن سعد (١٥٨ - ٢٣٠ هـ)، فانها حقا خزانة معلومات و موسوعة رائعة. فما ينبغي هنا انما هو اقتضاب مميزات الثلاثة الباقية من عصور القانون الاسلامي.

العصر الثاني :

امتد العصر الثاني نحوا من ثلاثة قرون (من أوائل القرن الثالث حتى نهاية القرن الخامس الهجري) تميّزت بالرواية و التقنين. فقد نهض جهابذة "السنة" بجمعها و تحقيق طرق روايتها و أحوال رواتها على نحو نادر، فعزّ مثالها في علوم الحضارات الى يومنا هذا ، و ألمع اللامعين فيهم هم : البخاري ، و مسلم ، و الترمذي ، و احمد بن حنبل - جزاهم الله على جهودهم العلمية العظيمة خير الجزاء . و الحق أنه قد كان لهؤلاء ايضا قدوة من علماء العصر الاول : منهم سفيان الثوري و مالك بن أنس و محمد بن ادريس الشافعي و محمد بن الحسن الشيباني - رضي الله عنهم أجمعين؛ و قد بقيت لنا كتبهم الجليلة. و المعنيون بالتثبت و الرواية من علماء العصر الثاني قد رتبوا كتبهم و موسوعاتهم على نحو أو آخر وفق التبويب الفقهي ، لانهم انما كانوا يُجمّعون المجموعات و المفردات من مقومات ثاني المصدرين الاساسين للشريعة . و نهض جهابذة التنظيم

المنهجي للعلوم بتقنين العلوم المقتبسة من الكتاب و السنة، مثل "علم العقائد" و "علم الروح" و "علم الفقه" و "علم اصول الفقه"، أي اصول القانون، و "علم أدب البحث".

و كأني بالعصر الثاني قد ختم بأبرع البارعين من هؤلاء المقننين المنهجيين، الفقيه الاصولي الفيلسوف، أبي حامد الغزالي (المتوفى في ٥٠٥ هـ):

العصر الثالث:

و العصر الثالث قد كان عصر تقيّد في الاغلب الاعم بمناهج العصرين السابقين و مذاهبهم، و عصر تقييد (أعني تأليف شروح و تعليقات) واسع النطاق للعلوم، القانونية منها و غير القانونية. فقد ألفوا المطولات و المختصرات، و المتون و الشروح، و شروح الشروح والتعليقات؛ و اختصروا المطولات و طولوا المختصرات؛ و ما فاتهم استعمال الشعر أيضا للتأليف في القانون و في غير القانون. و ان من قبيل هذا

الاخير كتاب "الزُبَدَ" في المذهب الشافعي للشيخ أحمد بن رسلان (المتوفى عام ٨٤٤ هـ)، و"الارجوزة الياسمينية" في علم الجبر لعبد الله ابن محمد حجاج المعروف بابن الياسمين (المتوفى عام ٦٠١ هـ) من أهل فاس. و نبغ فيهم، على الرغم من طابع التقيّد العام، فقهاء و اصوليون لامعو الفكر: أمثال ابن الصلاح صاحب "المقدمة في علوم الحديث" و ابن رشد صاحب "بداية المجتهد" و النووي صاحب "المجموع" و الكمال بن الهمام صاحب "فتح القدير" و امثال ابن تيمية و ابن القيم و سعد الدين التفتازاني و الحافظين العراقي و العسقلاني و جلال الدين السيوطي (الأسيوطي). و هؤلاء النابغون هم من علماء هذه القرون الخمسة: السادس و السابع و الثامن و التاسع و العاشر من الهجرة. و قد امتد العصر الثالث من أوائل القرن السادس الهجري حتى تأريخ الظهور و الغلبة لدول الحضارة الاوروبية الحديثة و امتدادِ قهرها الاستعماري الظاهر و نفوذِها الاستعماري المستتر في اقطار العالم الاسلامي. و المستثنى الوحيد من بلوغ النهاية الزمانية

للعصر الثالث إنما هو الاندلس الفقيد قبل انتهاء هذا العصر.

العصر الرابع :

فالعصر الرابع إذن يبتدئ عند هيمنة الحضارة الاوروبية الحديثة بالطرق المعروفة للاستعمار المباشر و الاستعمار غير المباشر في أرجاء البلاد الاسلامية على وجه العموم و في الاقطار العربية على وجه الخصوص. و لسنا نعلم اليوم علم اليقين متى و كيف سينتهي هذا العصر الرابع "عصر الاستعاضة و التجميد"- وان كان ينبعث هنا و هناك وعي في ابناء الشعوب و بين علماء القانون بأن ليس من شأن الببغاء أن تصبح بلبلا و لا القردِ أن ينقلب إنسانا بمجرد التقليد. فالانسان إنما هو الذي يولد انسانا، و الانسان ذو حضارة إنما هو ذلك الذي يبني و يشيد حضارته. و لا يخفى أن مستورد السيارة و الدبابة و الطيارة هو غير صانعها و مصدّرها، و كذلك الشأن في القانون و في غير القانون.

و لهذا العصر الرابع أيضا طابعه.

و قد آثرت هنا ألا أكون أنا الواصفَ المحدِّدَ لطابع هذا العصر القانوني، و ان كنت عالم قانون و استاذا لاصوله و فلسفته. ذلك لأن العصر الرابع الموصوف إنما هو عصر معاصر ربما يدخل في تعريف طابعه أثر لمنحى المعرِّف؛ و لأن قراء كتابي سيكون منهم المسلم دينا و غير المسلم؛ و لأن الوصف يتعلق بالقانون الاسلامي و بقوانين بلاد أوروبية مسيحية دينا؛ فاحببت أن ألتزم مع قرائي مطلق الحياد بتجريد الوصف الموجز المحتاج اليه من احتمال أيّ انعطاف الى القانون الاسلامي من كاتب مسلم. فاطّرحت علمي و فكري جانبا؛ و لجأت الى عالم قانون مسيحي مرموق، هو الاستاذ الدكتور شفيق شحاته، استعير منه الوصف في كتابه "الاتجاهات التشريعية في قوانين البلاد العربية" (طبعة المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٦٠ - ص ٥-٦)، شاكرا إياه و واضعا أصل عبارته أمام أعين القارئين و أفكارهم في ما يلي :-

"و البلاد العربية في إبان حضارتها حكمها قانون منبعث من صميم عقيدتها، يتمثل في الشريعة الاسلامية. و الشريعة الاسلامية ظلت سائدة مطبقة تطبيقا شاملا لمختلف نواحي الحياة العربية، و ذلك على مدى قرون طويلة. فاذا أردنا الآن الرجوع بالبلاد العربية الى مقوماتها الاصيلة، تعيّن علينا الرجوع الى هذا الينبوع لنغترف منه أنظمة تتنسق و حاجات العصر.

"على أن البلاد العربية، بعد أن دبّت فيها عوامل الانحلال، نسيت ماضيها. و لما أرادت في مستهل القرن التاسع عشر النهوض من كبوتها، لجأت الى البلاد الغربية، التي كانت قد سبقتها في مضمار الحضارة، و أخذت عنها الكثير من أنظمتها، و هي قد فعلت ذلك مجاراة لها أو خضوعا لنفوذها، أو طلبا للنظم المستحدثة من أيسر طريق و أسرعه.

"و قد أدت هذه الحركة الى صدور تقنينات عدة متباينة، لا سيما و ان البلاد العربية كانت منقسمة على نفسها، رازحة تحت

ربقة الاستعمار، فكانت احدى الدول تفرض تشريعها هنا، و تفرض الاخرى تشريعها هنالك".

هذا - لعمر الحق - وصف صادق لهذا العصر، عصر تجميد القانون الاسلامي و الاستعاضة عنه بتقنينات متباينة مأخوذة من دول الاستعمار. و اني مضيف اليه كلمتي صدق على منواله. احداهما أن البلاد الاسلامية غير العربية ليست هي في ذلك بأحسن من البلاد العربية حالا. و الاخرى أن دول الحضارة الغربية، و قد دأبت على اتخاذ علومها خادمة للاستعمار فوسيلة للقهر و الظلم و التضليل و تعمية الحقائق من حول الارض، طفق علماؤها يتطبّعون بذلك الطابع الاستعماري الى حد الانخلاع عن مزايا نشدان الحقائق في العلم، و يتأدبون مكانها بأدب التحريف و الغش و الدسّ و التشويه و تخبئة حقائق العلوم. فإنهم في مجال العلوم الصناعية و التطبيقية يخبّؤون الأسرار عن ابناء البلاد العربية مسلمين و مسيحيين، وعن ابناء البلاد الاسلامية أيّا كانوا في القوم أو الملة؛ و انهم

في مجال العلوم الاجتماعية الاسلامية، و منها علوم القانون، يشوّهون و يحرّفون و يقبّحون في بحوثهم و يتعمدون الخروج عن مسالك النظر في العلم. هاتان هما الكلمتان و ليس سواهما من مزيد. و اذا استزاد القارئ من بيان خلائق الاستعمار و علمائه فلعله يعود الى الفصل الثالث يلقي نظرة سريعة على خلاصتها المعروضة هنالك. فلنبحث الآن في أصل مسائل الاجماع ناظرين الى عصر نشأته و نشأة أنواعه.

اجماع اهل الحل و العقد:

فور وصول النبي الكريم المدينة المنورة في العام الاول من الهجرة تأسست دولة الاسلام الاولى و شيد مسجد رسول الله - صلى الله و سلم عليه و على عترته و أصحابه -؛ و أصبح النبيّ الرسول هو الآخذ بزمام الرئاسة العليا للدولة، يعينه و يؤازره في امورها ذوو الدراية و الفهم المتأهلون للحل و العقد من أصحابه المؤمنين البررة المهاجرين

و الانصار المجاهدين بأموالهم و أنفسهم في سبيل اللّه ربّ العالمين . فنزل القرآن المجيد في الثالثة من سوره بآية صريحة (هي التاسعة و الخمسون بعد المئة) يبيّن الله - جل شأنه - في نصفها البادئ ما منّ به على رسوله من خصائص ميّزته في السلوك تجاه ابناء امته عن رؤساء الدول ، و يأمره في نصفها الخاتم بأن يشاورهم في امور الدولة فأن ينفّذ ما يعزم عليه في الشورى متوكلا على الله سبحانه . و اليك نص الآية الكريمة :-

"فبما رحمة من الله لِنت لهم . ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك . فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في الأمر . فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين".

الواقع هو ان الشورى كانت قد وردت في سورة مكية منزّلة قبل الهجرة ، أي قبل تأسيس دولة الاسلام ، فسميت بها السورة - و هي الثانية و الاربعون . بيد أن هذه السورة

انما أوردت الشورى (في الآية ٣٨) في سياق الثناء على المؤمنين و مزايا خصال لهم حميدة منها الشورى في مجتمعهم. و لا شك أن الشورى اذ ذكرت في معرض المحامد مع الايمان و الإنفاق و اجتناب المآثم و اقامة الصلاة فان تلك قد أغنت العقول فهما لمنزلة الشورى في نظم الاسلام، كما أغنتها آيات أخرى من القرآن ادراكا لما ناقض الشورى من استبداد الطغاة و الطواغيت. أما الحكم التشريعي الآمر باتّباع الشورى فقد تم - كما قلنا - بعد تأسيس دولة الاسلام. و أخذ الرسول العظيم في تطبيق الآية الآمرة، شأنه مع سائر احكام الكتاب الكريم.

و ليس يخفى على أحد من الناس، المتعلمين منهم و غير المتعلمين، أن أيّ جماعة يتشاورون في أمر فلا يخلو شأنهم من أن يختلفوا فتتعدد الآراء أو أن يجمعوا قاطبة على رأي أو حكم واحد - فذلك هو الإجماع. هذا انما هو من الامور المعروفة على البداهة، فلا يحتاج في معرفته الى مزيد خبرة أو نباهة أو دراية في علم القانون.

هكذا انبثق اجماع أهل الحلّ و العقد من الشورى؛ و ابتدأ ما ذكره مورخو الرجال بعدئذ من أن فلانا كان من أهل الشورى في العهد الفلاني. و لقد دوّن لنا مؤلفو العصر الاول تفصيلات قضايا مهمة عُرضت على الشورى فاتُّخِذت فيها قرارات و شُرِّعت احكام عظيمة الأثر في حياة الامة و سياسة الدولة. و نحن نعلم اليوم من تلكم التفصيلات أن المؤهلات الشخصية المرعيّة في أهل الشورى إنما كانت الخبرة و العلم و الدراية منضمة الى التقوى و سابقة الاخلاص التام و الجهاد المتواصل في سبيل الله - سبحانه - لتشييد دولة الاسلام و اعلاء شأنه و عزة امته و الذود عن حياضه؛ و نعلم كذلك أن أهل الشورى ما كانوا ليتعجلوا القضايا ذوات البال و الخطر بقرار، بل ربّما أطالوا أمد النقاش و المباحثة حتى التوصل الى حكم تطابقوا عليه و أقروه بالاجماع.

فان من القضايا الكبرى التي عرضت على الشورى قضية الارض الزراعية في سواد

العراق اثر النصر المؤزّر في حروب القادسية و ما بعدها يوم اذ كان عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - رئيسا للدولة • و قد اختلفت فيها آراء أهل الشورى بين محبّذين جعل رقبتها ملكا "لبيت المال "(الخزانة العامة) و معارضين لهذه الفكرة. و دامت المناقشات و المطارحات أياما في جلسات علنية جال فيها المعارضون و صالوا الى حد تشديد المضايقة على أمير المؤمنين، الذي كان يخرج عند ارفضاض بعض الجلسات و هو يقول: " اللهم اكفني بلالا و اصحابه". و بلال هذا الذي رأس المعارضة في الشورى أيام عمر ابن الخطاب إنما هو بلال بن رباح الحبشي العبد المملوك قبل الاسلام و السيّد الحرّ المجاهد في الاسلام. كان عبدا اذ نادى الرسول العظيم بالاسلام في مكة. فآمن أيام ضعف المسلمين و عانى ما عانى من التعذيب من أجل عقيدته، حتى اشتراه ابوبكر الصديق - رضى الله عنه - فحرّره من العذاب و من الرق. ثم هاجر و جاهد في سبيل الله جهادا متصلا ، و لزم رسول الله

- صلى الله عليه و على آله و صحبه و سلم -،
و اصبح مؤذنه للنداء الى الصلاة. هذا هو
رئيس المعارضة في المناقشات المستطالة التي
دارت في شأن أراضي العراق.

أما طابع هذه المناقشات في الشورى
فقد كان قانونيا تشريعيا كالحكم الذي اختتمت
به. فلقد واصلوا النقاش حتى توصلوا الى
الإجماع على كون تلكم الاراضي الزراعية راجعة
الى "بيت المال" ملكا عاما من حيث الرقبة،
و موضوعة تحت أيدي الزراع الفعليين من
حيث الاختصاص بالزراعة و الاستصلاح.
و قد أعان على انعقاد هذا الاجماع استنباط
فقهي دقيق من المصدر الاول للقانون الاسلامي
توصّل اليه أمير المؤمنين و عرضه عرضا موفقا.
هذا، و لقد بلغنا بما أوجزنا بغيتنا من أمر
النوع الاول من الاجماع فكرة و تطبيقا؛ فمن
أراد التبسط في التفصيلات فليرجع الى مراجع
الفقه و اصول القانون الاسلامي. على أنّا
استقينا ما اقتضبنا ههنا من مصادر العصر
الاول، و لاسيما "كتاب الخراج" (الطبعة

الثالثة ، القاهرة ، ١٣٨٢ هـ) لأبي يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـ) المجتهد الشهير من علماء الأمصار و قاضي القضاة في زمانه .

إجماع الامّة :

و جاءنا الكتاب المجيد بنوع آخر من الإجماع نصّ عليه في سورة "النساء" بالآية الخامسة عشرة بعد المائة :-

"و من يشاقق الرسول من بعد
ما تبيّن له الهدى و يتّبع غير
سبيل المؤمنين نولّه ما تولى
ونصله جهنم و ساءت مصيرا ".

فههنا الامر الموكد باتباع "سبيل المؤمنين" توكيدا دلت عليه صيغة الوعيد الاخروي لمن يتّبع غير سبيل المؤمنين ، فماذا أريد بسبيل المؤمنين؟ وكيف تميّزت مقوماتها فتُعرفَ وتُتّبعَ و يُجتنب ما ليس منها الذي يغايرها ؟ .

الذي لا يخفى من أمر هذه المسألة هو انها ليست من المسائل حاضرة الجواب

و المواطن الاخرى التي كانت الامبراطورية الرومانية قد استولت عليها من قبل في شمال القارة الافريقية. و حيثما دخل المسلمون فخرج الرومان ساد القانون الاسلامي فباد القانون الروماني - و قد كانتا شريعتين متعارضتين لا تتعايشان، بل متضادّتين في أهم أسسهما و مقاصدهما العليا فلا تجتمعان. هكذا انحسر القانون الروماني في الغرب و الشرق. ثم أفل نجمه و غاب عن وجه الارض يوم إذ قوّض المسلمون الأتراك الامبراطورية البيزنطية و احتلوا عاصمتها (كونستانتينوبل = اسطنبول)، فأنهوا بذلك الحكم الاوروبي في الشرق، و أسسوا الدولة الاسلامية العثمانية - و لكل زمان دولة و رجال.

العصر الرابع:

لنأت الآن الى العصر الرابع - عصر انبعاث القانون الروماني. ابتدأ الاندفاع الى هذا العصر عام ١٤٥٣ من الميلاد، و ما زال مستمرا منذ ذلك التاريخ، و قد بلغ عنفوان شبابه في هذا القرن الميلادي العشرين. ما بلغ الانحسار

الاول للقانون الروماني و لا تقويض الامبراطورية الغربية بأيدي قبائل غربية مبلغا في نفوس أهل القارة يثير فيهم حماسة الاندفاع و النهضة الى القانون الروماني ، بل آثرت عليه القبائل و ممالكها أعرافها. أجل ، أسس الألمان ما عرفت في التاريخ الاوروبي "بالامبراطورية الرومانية المقدسة". لكن هذه (و ان كان قد طال عمرها ٨٠٠ - ١٨٠٦ م) لم تستحدث للقانون الروماني نهضة و لم تنفث فيه نسمة حياة. بل هي - كما وصفها ڤولتير - ما كانت امبراطورية و لا رومانية و لا مقدسة. فاما الانحسار الثاني و انقضاء الامبراطورية الرومانية البيزنطية على أيدي المسلمين الاتراك الشرقيين الذين أنهو الحكم الاوروبي الروماني في الشرق - أما هذا الخطب الجلل فقد جمع قلوب الاوروبيين على نخوة الرجوع إلى الشريعة الرومانية، هذه التي دالت دولتها و حلت محلها الشريعة الاسلامية في العاصمة الاسلامية العثمانية الجديدة.

هكذا أصبح تأريخ سقوط القسطنطينية (١٤٥٣ م) مبتدأ لإحياء القانون الروماني و عصر

نهضته الحاصر اليوم. فشرع المشرعون يأخذون منه و يبنون عليه، و أخذت مدارس القانون تُعنى بتدريسه و بحثه و احياء مواته. و على الجملة نهضت بلاد الحضارة الاوروبية نهضتها الحديثة في العلوم و الآداب و القوانين، فنهضت بالشريعة الرومانية و اتخذتها المصدر الامّ تستمد هي منها الأبدان و الأشكال و الألوان لقوانينها الحديثة.

ثم خلت قرون صوَّبت بعدها الدولة العثمانية الى حضيض التواني في السعي والعمل، و صعَّدت خلالها دول الحضارة الاوروبية الى أوج المسعى في تشييد حضارتها الحديثة، فأخذت دولات تتعاظم و تقوى و تثور، و اخرى تتصاغر و تضعف و تحور. فلما استكملت المتعاظمات قواها في كل ميدان، و استزادت المتصاغرة أيّما زيادة في النقصان، رضخت الدولة العثمانية في النصف الاخير من القرن الميلادي التاسع عشر لما فرض عليها من نبذ للشريعة الاسلامية و أخذ بقوانين أوروبية مبناها الشريعة الرومانية. فلما قضت الدولة نحبها في أوائل القرن العشرين تقاسمت فرنسا

الكبرى و بريطانيا العظمى اقطار الدولة المنهارة فاتخذتاها مستعمرات أو محميّات أو قاصرات الاهل تحت الانتداب، و حيثما حلّ المستعمر الغالب أحلّ قوانين رومانية المادة أو رومانية الفقه محلّ الشريعة الاسلامية المجلاة عن وطنها المغلوب - (و قد مرّ علينا في الفصل الثالث طرف من اعمال المستعمرين في مجال القضاء و القانون).

بل قبل زوال الدولة العثمانية (سنة ١٩١٤ م) ، كانت الدولتان العظميان يومذاك ، بريطانيا و فرنسا ، قد استعمرتا شبه القارة الهندية و مصر و المغرب العربي، فصنعتا هناك - على نحو او آخر - ما صنعتاه بعد في اقطار المشرق العربي المستعمرة عقب ذلك التأريخ. فأخذت الشريعة الرومانية تزدهر في تلكم الاصقاع أيّما ازدهار. دخلت عرائس أحكامها في شؤون الناس، أحوالهم و أموالهم و أعمالهم ، يحكمنها و هن مزيّنات في غلائلها المستحدثة من التقنينات الانكليزية أو الفرنسية أو ما شاكلتها التي دُفعت اليها الاقطار المغلوبة رغبا أو رهبا ؛ فتسلمتها تارة بنصوصها و فصوصها، و اخرى

مترجمات النص ، و ثالثة مترجمات مخلوطات بما يوائم البلد المستسلم المغلوب . و ذهبت مدارس القانون (كليات الحقوق !) في البلاد الرازحة تحت الاستعمار (الجلي منه و الخفي) تنكبّ على الشريعة الرومانية ، فتجعلها مادة لدرس مستقل ، و متخللة في دروس القوانين المستحدثة النافذة أو ضمن ما يلقى الى الطلبة من مباحث فقهية من مثل "نظرية الالتزام" . و حيثما لم يجعل لقديمها درس مستقل برأسه فهنالك درس تأريخ القانون الوافي بما هو مطلوب لامّ الشرائع الاوروبية السائدة . و خير مثال للعربية من هذه القوّانين المتسلمة السائدة هو القانون المدني المصري القديم - ذلك الفرنسي اللاتيني عظما و لحما و دما و شكلا و لونا ، الا أنه ملفوف في ثوب اللغة العربية . و مثله القانون المدني المصري الجديد : فانه و ان اقتبس احكاما من الشريعة الاسلامية "فلا يزال القانون المدني الجديد يمثل الثقافة المدنية الغربية - لا الثقافة القانونية الاسلامية" - كما قاله الدكتور عبد الرزاق السنهوري ، و قد كان شيخ مقنني

هذا القانون، في بحث له منشور في العددين الاول و الثاني لسنة ١٩٦٢ من "مجلة القضاء العراقية".

ثم استقبلنا الربع الثاني من القرن العشرين بوليد من فصائل القانون هجين. ذلك هو القانون المدني العراقي المشرع سنة ١٩٥١، و الذي كانت "لجنة" قد عملت في تقنينه نحوا من اثنتي عشرة سنة. لقد استولِد هذا الهجين جسدا لاتينيا فرنسيا في اصوله و قواهه ومعالمه، مسترقا أنفا و أذنين و بعض الانامل من القانون الاسلامي. فلما وُلد طُبِّل له و زمّر، و عُلّقت عليه الخرزات ليحيا و يُعمِّر. وقد بهرت الألوان من لا يفرّقون بين الخرز و الماس المصون، و لا يميزون "قوقعة الشيطان" من صدف الدرّ المكنون. و قد كان من هؤلاء رجال قضاء و قانون. فأما المتضلعون من الفقه الروماني أو من الفقه الاسلامي أو من الفقهين كليهما فقد ابصروا النشاز و المعابة و التنافر الفقهي في كل فصل و باب و كتاب من هذا القانون الهجين. بيد أن الشريحة الرومانية قد أحييت بذلك الصنيع و ادخلت في ميادين الدرس و القضاء في

العراق اسوة بما تم في مصر و في غير مصر؛ و اميت قانون "مجلة الاحكام العدلية" السائد من قبل - هذا الذي كان اسلاميا مقننا من فقه المدرسة العراقية المنسوبة الى الفقيه الجليل أبي حنيفة نعمان بن ثابت الشهير بلقب الإمام الاعظم.

فالشريعة الرومانية (بأعطافها القديمة و الحديثة) هي اليوم في عصرها الرابع، عصر الانبعاث و الازدهار: لقد انبعثت في دول الحضارة الاوروبية و ازدهرت؛ و هي آخذة في الانتشار أو منتشرة آنفا في البلدان المرتمية في حظيرة هذه الحضارة الغالبة غلبة القاصفات و المدمّرات و القنابل النووية.

الفتاوي و المفتون:

بعد انتهاء الاول و ابتداء الثاني من عصور القانون الروماني أخذ ينشأ رجال قانون ثم فقهاء - كما اسلفنا. و أخذ الناس

يسألون الفقيه في ما يعرض لهم، فيفتي الفقيه السائلَ بما يرى من الحكم القانوني في مسألته. ثم إذ حلّ العهد الامبراطوري في القرن الاول قبل الميلاد ذهبت الفتاوى تتكاثر ولا تنضبط. فكل من آنس في نفسه علما بالقانون أفتى كل من استفتى. عندئذ قرر الامبراطور "اوكوستوس" (٢٧ ق.م - ١٤م) في شأن الفتاوى أنها يجب أن تصدر مختومة (موقعة) ومن فقهاء متضلعين في القانون ومن ثم معيّنين من الامبراطور لاصدار الفتاوى. وقد ورد في "دايجيست" (١/ ٢/ ٨٨ - ٥٠)، رواية عن "بومبونيوس" (المعاصر للفقيه "كايوس" المشار اليه عما قريب)، أن "سابينوس" كان أول مفتٍ عيّن بالامر الامبراطوري لاصدار الفتاوى، وأن الذي عينه قد كان الامبراطور "تايبيريوس" (١٤-٣٧م). ثم تعدد المفتون المعيّنون وتكاثرت الفتاوى على العهد الامبراطوري. تلك هي الفتاوى في القانون الروماني، وامثال أولئك الذين ذكرناهم هم المفتون.

و يشبه ذلك كل الشبه ما نعلم من تعيين الحكومة المفتين و اصدارهم الفتاوى في أواخر عهد الدولة العثمانية .

اجماع المفتين :

لعل أقدم نص روماني وصل الينا في شأن الاجماع أن يكون ذلك الذي ورد في الكتاب الملقب ب : "إنستجيوتس" و المنسوب الى الفقيه "كايوس" الذي يغلب على الظن انه كتب في حدود عام ١٦١ الميلادي. النص بضعة أسطر و هذه ترجمته : فتاوى الفقهاء هي مقررات و آراء لاناس مخوّلين بتوضيح القانون. فاذا وجدوا مجمعين في الرأي فما أجمعوا عليه فله حكم القانون. و اذا وجدوا مختلفين فللقاضي أن يتّبع الرأي الذي يختار. ذلك ما تقرر بالقرار الامبراطوري الذي أصدره الامبراطور الراحل "هادريان". هذا معنى كلام كايوس، و قد حكم هادريان (أو هيدريان) خلال ١١٧ - ١٣٨ م. فمن هم - يا ترى - أولئك المفتون على وجه التعيين الذين عُدّت المتفقات من فتاويهم ملزمة

للقاضي ؟ و متى تحدّد حكم هذا الالزام في مجال القضاء و القانون ؟

الواقع أن التعيين و التحديد المتساءل عنهما إنما تمّا في الربع الاول من القرن الميلادي الخامس بقانون مشهور في المجموعة الرومانية يعرف بلقب "قانون الاستدلال "(لو اوف سايتيشنس- باللغة الانكليزية) . و قد اشتمل هذا القانون على الاحكام التالية المنصبّة على الاستدلال بالفتاوى اثناء المرافعة و القضاء : أ- يعتدّ بمكتوبات "بابنيان" و "بول" و "كايوس " و " اُلبيان" و " موديستينوس" ... ؛

ب - و يقبل أيضا ما استدل به أيّ واحد من هؤلاء من أقوال السابقين عليهم أمثال "سكافولا" و"سافينوس" و "جوليان" و"مارسيلوس" ، هذا شريطة الاستيثاق منها بمقارنة المخطوطات لما يحيط بكتابات اولئك السابقين من شكوك ؛

ج - فاذا اختلفت آراؤهم [أي الخمسة المذكورين في صدر الفقرة الاولى] اُعتُدَّ بالاكثرين ، أو تساوى المختلفون عددا اعتد بالرأي المرجح عند "بابنيان" ، أو لم يكن لبابنيان رأي إختار القاضي حينئذ

ما يرى رجحانه ؛ د - لا يعتد بتعقيبات "البيان" و"بول" على "بابنيان". تلك هي أحكام القانون المذكور، هذا الذي شرع و اصدر و عمل به في الامبراطوريتين الرومانيتين الشرقية و الغربية. و أنت ترى فيه الاجماع موقوفا على الخمسة المفتين الفقهاء، مع جعل الامامة فيهم لبابنيان، و رفض ما عقّب به على آرائه اثنان من الخمسة مسمّيان.

وتشبه هذا بعض الشبه في المجموعة الاسلامية فكرة نشأت عند بعض المؤلفين في الفقه و اصوله في العصرين الاخيرين (أي عصر التقيّد و التقييد، و عصر الاستعاضة والتجميد) مؤداها حصر المذاهب في أربعة (هي الحنفي و المالكي و الشافعي و الحنبلي) من مذاهب الشريعة الاسلامية المتعددة. لكن الفكرة لم تكن ذات صلة بإجماع العلماء، لا من حيث جعل الاجماع مقصورا على المذاهب الاربعة و فقهائها، و لا من حيث اعتبار المتوافقات من آراء هؤلاء احكاما قانونية ملزمة إلزام الاجماع، بل الفكرة ذاتها لم تسعف بقبول عند المجتهدين و الفطاحل

من فقهاء المسلمين. فأما فتاوى المفتين فلست أعلم أحداً من فقهاء الشريعة الاسلامية ذهب الى أنها تلزم القضاء أو ترتفع الى مثابة الحكم القانوني المشرَّع بالكتاب أو السنة أو الاجماع.

فأما الاجماع في الشريعة الرومانية

فقد كان هذا الذي رأيناه موصوفا محدداً بما شرّع في قانون الاستدلال. و إن فتاوى الفقهاء المفتين - المختلفات منها كالمتفقات - قد عدت المصدر السادس من مصادر القانون الروماني المنصوص عليها في "انستجيوتس" (١/٢/٣ - ٨) على عهد "جستنيان". هنالك وُصِفَ المصدر السادس أوضح وَصْفٍ نختتم هذا المبحث بترجمته في ما يلي :-

"فتاوى الرجال المتضلعين من القانون إنما هي مقررات و آراء من اناس كانوا قد خوّل اليهم بيان القانون. ذلك أنه وجد في الزمن القديم رجال مكلفون بشرح القوانين بين

الناس كان الامبراطور يمنحهم سلطة اصدار الفتاوى، و كانوا يدعون بالمفتين "جوريسكونسلت" [أو المُسْتَفْتَيْنَ في القانون - إذا أحببت ترجمة حرفية ملتزمة بصيغة الاشتقاق]. و قد جعل لقراراتهم و آرائهم جميعا من قوة الالزام ما لم يجوّز معه للقاضي الخروج عن فتاويهم - على ما كان شرع بأحكام امبراطورية."(١)

---

(١) للمعلومات القانونية و التأريخية المذكورة في هذا المبحث راجع المصادر التالية :-

Gaius, Institutes, tr.& ed. by E. Post, London, 1904, (Quoted by books, titles and articles).

Justinian, Digest, tr.& ed. by C. H. Monro, Cambridge University Press, 1904. (Quoted by books, titles and articles).

Justinian, Institutes, tr.& ed. by R.W. Lee, 2nd ed., London, 1949. (Quoted by books, titles and articles).

Lee, R.W., Elements of Roman Law, 2nd ed., London, 1949, (being a commentary on Justinian's Institutes).

Lee, R.W., Historical Conspectus of Roman Law, London, 1956.

Naqeshbandi,A.M., The Doctrine of Consensus, a thesis submitted to the Faculty of Laws, University of London, 1959.

Post,E., Institutions of Roman Law, London,1904,(being a commentary on the Institutes by Gaius).

Schulz, F., History of Roman Legal Science, London,1946.

و هذا عنوان كتاب "شاخت" الذي اشير اليه مرارا في الفصلين الخامس و السادس:-

Schacht,Joseph, The Origins of Muhammedan Jurisprudence, Clarendon Press, Oxford, 1950.

المبحث الثالث
شحنة الاباطيل في رسالة الدكتوراه

قد علمنا في الفصل الخامس أن الحرية الجامعية انما كانت العنقاء تذكر و لا توجد، و أن مؤلف الرسالة الجامعية قد اضطر الى جوّ من الإكراه أحاط به من كل جانب؛ و أن المناحي المفروضة فرضا قد انحصرت في تلك التي جمعها الاستاذ جوزيف شاخت في كتابه فانتهت الامامة فيها اليه؛ وأن الرسالة اقتصرت مقدماتها و تواليها على الالتزام بالنتائج المقررة عنده و ترتيب مزيد من الادلة لتقوية مزاعمه. و إني - و أيم الحق - قد قصّرت في جنب الحق والعلم وحرية العقل؛ لكني لم اقصّر في الوفاء بمتطلبات الجامعة فشحنت الرسالة شحنا بأباطيل الاستاذ شاخت و أباطيل الاستدلال المزخرف لتأييدها في مباحث الاجماع و المسائل المتصلة به. و باطلات النتائج انما تتولد من بواطل المقدمات. ولما كانت شحنة الاباطيل في رسالتنا مقتبسة من شحنة الاباطيل

في كتابه أو موضوعة على غرارها إقتضى الامر هنا كشف الاخطاء العلمية الفادحة التي اتخذها هو اسسا علمية بنى عليها جملة بحوثه و دراساته التي تمخضت عن كتابه في اصول القانون الاسلامي. (و قد سلف اسم الكتاب و وصفه في الفصل الخامس).

فاليكم بيان تلكم الاسس الفادحة بيانا كافيا مقتضبا:-

الاساس الاول: اعتماد طريقة سلفه الاستاذ كولدزيهر (أو كولدتزيهر - و أولى الهجاءين متداولة في الكتب العربية المعاصرة فآثرناها) للبحث في مصادر القانون الاسلامي، والتعصب لنتائج بحثه. هذا ما لا يخفيه شاخت، بل يقول في مقدمة كتابه ما معناه: "أما كولدزيهر فستتاح لي فرص كثيرة لنقل آرائه؛ و أنا ليس لي أن اتمنى أكثر من أن يعتبر هذا الكتاب إمتدادا غير عديم الجدوى للبحوث التي أنشأها هو ...". فأما طريقة كولدزيهر فهي التي يتعلمها يهودي من دراسة تطورات الشريعة

اليهودية و" العهد القديم " و" التلمود ". و قد طبّقها هو في بحوثه في مصادر القانون الاسلامي على الرغم من أن نشأة هذا القانون ومصادره و تطور علومه ، كل ذلك متباين متغاير تغايرا شديدا في الواقع و المنهج و التأريخ عما اختصت به الشرعة العبرانية من مصادر نشأة و مسار تأليف. و ليس مما يخفى على أهل العلم بتاريخ القانون انه انما صنع ذلك ليلصق بالقانون الاسلامي جملة معايب اتسم بها المسار الطويل المضطرب الذي مُنيت به الشرعة اليهودية. و الا فان استخدام أية طريقة ملائمة لدراسة أحد القانونين المذكورين في دراسة القانون الآخر انما يراه العالم المحايد أشبه شيئ بانتقاء منهج أبي نؤاس في نظم خمرياته للتطبيق على مسرحيات "وليم شيكسبير" بغية التوصل الى نتائج كاذبة من بحث غير سديد.

الاساس الثاني : بناؤه دراسة المصدر الثاني (أي السنة) من مصادر القانون الاسلامي على دعامتين واهيتين. احداهما اعتباره

منهج النقد الاسلامي "للحديث" مقتصرا على دراسة "الاسانيد" وحدها دون "المتون". و تكذّبه في ذلك الحقائق العلمية الموجودة في كتب النقاد و الاصوليين المسلمين و المنصبة على نقد متون الحديث نقدا مفصّلا. فلا مهرب لنا إذن من القطع بأن الاستاذ شاخت إما أن يكون قد جهل تلكم الحقائق العلميـة أو تجاهلها عمدا اثناء تأليفه كتابه، و النتائج في كلتا هتين الحالين وخيمة عادة ، و دعامته الاخرى افتراضه أن اصحاب رسـول اللـه و التابعين الذين عايشوهم و علماء الامصار في عصرهم ، أن كل أولئك لم يكن لهـم شغل شاغل غير الكذب على نبيّهم و اسناد الاقوال و الاعمال اليه زورا وبهتانا. وتكذّبه في ذلك حقائق التأريخ و الواقع الثابتة من كون أولئك امة مؤمنة بالرسول و دينه و تشريعه، مسترخصة الاموال و الاولاد و الارواح في سبيل اتباعه و اعلاء كلمته و اقرار دولته و تطبيق اسلامه ، خائضة حربا بعد حرب يبتغي جزاءها الخائضون

الشهادة في سبيل الله و رسوله على مستوى
من حب الفداء نادر في تأريخ الامم ، بل
لقد دوّن التأريخ المبين كيف أنهم قاتلوا
الأعمام و الإخوان و الأولاد و الآباء و الحشير
كلّهم حبا لرسول الله و نصرة لدينه و تفانيا
في اتّباع أوامره و نواهيه و أقواله و أعماله.
فالآن دع عنك الانسان العاقل، أفيستسيغ
باقِلٌ من الناس اتهام امة هذا شأن أبنائها
بأن الأصل العلمي في حالهم أنهم كانوا كَذَبَة
يختلقون الاحكام الشرعية و ينسبونها الى
صاحب دينهم و مشرّع مناهجهم لحياة الدنيا
والآخرة ؟! أم هل ترى من اصول النقد في
شيء أن نصم بني الانسان في كل زمان ومكان
بوصمة الكذب و التزوير و البهتان لمجرد
علمنا بأن اخلاف اليهود قد كذبوا على اسلافهم
وعلى نبيهم و صنعوا ما صنعوا بالكتاب المقدس
الذي كان قد انزل على سيدنا موسى الكليم
- عليه و على خاتم النبيين أجمل الصلاة
والتسليم - ?! .

الاساس الثالث : اختلاق مصدر من عنده

للقانون الاسلامي سماه "التقاليد الحية" و"التقاليد المدرسية الحية"، وسلوكه غير سبيل العلم لإقناع القارئ كتابه بوجود ما اختلق، طفق يستعيد ذكر هذا المختلَق في فصول الكتاب حتى يتمّ الايحاء الى القارئ بأنه شيء قائم مفروغ من وجوده، في حين أنه ما استطاع خلال كتابه كله أن يقيم دليلا واحدا على أصل وجود شيء من هذا القبيل. ومضى يستعمل في الايحاء الوسائل النفسية الخبيثة التي تعتمدها مؤسسات الجاسوسية لدول الاستعمار في إحداث التضليل بين الناس وإلباس الاكاذيب لبوس الحقائق المسلمة و الامور الثابتة بتواتر التكرار. وان من طرائق التضليل عنده الإكثار من الاشارات المتداخلة الى ما مرّ وما سيأتي من كتابه. فكلما ذكر "التقاليد الحية" في الفصول المتقدمة - وما أكثر ذكره إياها - أحال القارئ في صلب الكتاب أو في الهامش الى مواضع لاحقة؛ و كلما ذكرها في الفصول المتأخرة أحاله الى مواضع سابقة. و هكذا دواليك حتى يعجزَ القارئ (و إنه لكذلك

ما لم يكن هو نفسه من الباحثين المتمرّسين في مصادر المجموعة التشريعية المبحوث في شأنها) عن استقصاء الاشارات المتداخلة وتمحيص ما في مواضعها الكثيرة ، فينتهي بمقتضى الحال الى إلقاء عصا الترحال وإلى الاستقرار عند الظن الغالب أو التيقن بأن هذا المتوسّع في ذكره من أول الكتاب الى آخره لا بد أن يكون شيئا قد وجد ان لم يكن أهم ما قد وجد في بابه .

أما العالم النزيه ذو الاختصاص في الشأن فاذا تفحص الكتاب وجده خلوا من كل دليل يصلح لإثبات ذلك المدعى المختلق، ثم وجد المدعى منطويا على تناقض في حد ذاته . ذلك أن المؤلف زعم أن "السنة" (أي الثاني من مصادر القانون الاسلامي) لم تكن هي مصدرا للقانون الاسلامي . بل أن المصدر انما كان "التقاليد الحية" التي وجدها الفقهاء في أواخر القرن الهجري الاول وبداية الثاني فبنوا عليها القانون الاسلامي وفقهه،

و كذبوا أجمعين على الناس جميعا فقالوا
إنما السنة . فاذا افترضنا جدلا أن هذا
الكلام صحيح ، ثم انتبهنا الى أن التقاليد
(أياًما كانت) إنما تصبح تقاليد بمرور زمان
طويل أو جدّ طويل (و الا انتفى الفرق
في الواقع و العقل و اللغة بين الحدث
الناشئ و التقليد الحيّ) ، و الى أن الرجل
يزعم أن تلكم التقاليد كانت موجودة قائمة
عند منقلب القرن الهجري الاول ، أدركنا
عندئذ أن مناشئ التقاليد هذه لا بد أن تكون
قد وجدت في زمان النبي الكريم و جيل
اصحابه السابقين - وليس أمثال هذه غير
بعض ما يدخل ضمن مفهوم مصطلح "السنة"
في اصول القانون الاسلامي. فالثالث من
اسس بحوثه مشوب بتناقض النفي و الاثبات
لشيئ واحد ينفيه هو مسمّى بإسم السنة
و يثبته مسمّى بإسم التقليد الحي الذي
استبدعه . أما ان كان مراده أن تلكم التقاليد
لم تكن وجدت قبل الاعوام المحدودة القليلة
التي حددها هو تاريخا لوجودها ، وأنها انما

كانت استحدثت و ايضا انقلبت تقاليد بين عشية و ضحاها في تلك الفترة القصيرة جدا، أما هذا فمزعم يتجافى عنه منطق العقل و مقال العلم و العلماء، لكنه هو الشيئ الذي لفقه.

الاساس الرابع : نزعة الحقد و الكراهية و اقامتها مقام الحياد الواجب في مظان البحث العلمي حتى ينجلي الامر المبحوث فيه. فهذه النزعة حيال الاسلام و علمائه تطلّ برأسها في مواضع شتى من كتاب المؤلف النازع. حيث العبارات تنمّ عن سباب و شتائم صيغت صياغة متقعقة في لغة أهل العلم و الادب. و لا بد للكراهية من ظهور و ان استبطن الكاره واكتتم. فاذا استقرب مُطالعُ نماذجَ الاسلوب المهذّب للعبارة عن الكراهية الشديدة فلينظر في الفصلين الخامس و السادس من كتابنا هذا الى المواضع التي عبّرنا فيها، لكن مظهرين لا مكتتمين، عن مقتنا جرائم خنق الحرية الجامعية و شنق طائرها ذاك الجميل الحبيب.

و إلا فليقرأ كتاب الاستاذ شاخت كي يجد المقت المستبطن في جمل من الانكليزية شيّقات.

و لقد افضت به هذه النزعة الى انكار البديهيات و المتواترات، و الجري الى نقائضها. فالناس من حول الارض يعلمون منذ قرون و أجيال أن نبيّ الاسلام انسان معروف النسب قرشي من أهل الحجاز،وأن أصل شريعته و فقهه القرآن الكتاب المقدس الذي نشره هو من أرباض الحجاز، و انه أسس دولة الاسلام الاولى و شرّع و حكم و قضى و علّم بالمدينة طيبة الحجاز، و ان الفقهاء العظماء من اصحابه الاوائل هم من أهل الحجاز ؛ و ان الاسلام انما انتشر بدينه و شرعه و فقهه الى سائر انحاء الارض من ربوع الحجاز. ثم يروح الاستاذ شاخت الى معارضة هذه المتواترات و البديهيات مما يعلم الناس، فيزعم أن الشريعة الاسلامية فقها و قانونا إنما نشأت بالعراق، في بعض مدنه كالبصرة و بغداد و الكوفة،نشأة بعيدة

عن جبال الحجاز و سهوله و شطآنه. و هو يصطنع ذلك كله لينتهي الى بغيته القصوى من القول بأن القانون الاسلامي ليس بإسلامي الاصل ، بل أنه شيئ بناه الفقهاء العراقيون عند منقلب القرن الهجري الاول على اصول غير اسلامية أهمها "التقاليد الحية" (التي بيناها آنفا) و "اجماع العلماء" (الذي سنبينه في الصفحات التالية).

تلك هي الاسس و الاركان المقررة للمدرسة الفكرية التي التزمنا بها في جامعة لندن. فلنذكر الآن أباطيل الاجماع المبنية على هذه الاسس في رسالتنا لمرتبة " دكتوراه في القانون" من مراتب تلك الجامعة. و لكي نتحاشى التطويل هنا بذكر الفروع من المسائل آثرنا الاكتفاء بتصنيف أهم تلكم الاباطيل و عرض كل صنف بخلاصة واضحة وافية. تنقسم الاباطيل الى الاصناف الثلاثة التالية :-

١- إقحام نتائج مرادة ثم التحكم بتجميع مقدمات و باصطناع المواءمة بينها و بين النتائج المقحمة سابقا.

٢- ألمغالطة في الاستدلال العلمي.

٣- ألكذب الصراح في العلم بالذهاب الى نقيض ما تثبته البراهين و شواهد الحال و طرق الاستدلال.

و يتلخص الصنف الاول في القول بأن "الاجماع"، و هو الثالث من مصادر القانون الاسلامي، ليس باسلامي و لا له في الاسلام أصل قائم، بل هو روماني الاصل استعاره الفقه الاسلامي من الفقه الروماني. هذه هي النتيجة المقحمة من مقررات المدرسة الفكرية المتّبعة. ثم تجمع المقدمات و الشواهد المسوقة الى هذه الغاية على النحو التالي: الاجماع مصدرا للقانون أصل روماني مصرح به في الكتب الرومانية قبل ظهور الاسلام، و ليس يوجد في الاسلام أي أصل ثابت و أساس للاجماع يرجع الى

صدر الاسلام حتى أواخر القرن الهجري الاول؛ وجملة الفقه الاسلامي و منها فكرة الاجماع انما نشأت في العراق دون الحجاز في أواخر الاول و أوائل الثاني من قرون التأريخ الهجري؛ و مدرسة القانون المدنية انما كانت ثانوية و معتمدة على المدرسة العراقية الرائدة البانية؛ فلا بد أن تكون نظرية الاجماع قد أُخِذت من الفقه الروماني الى الفقه الاسلامي في أوائل القرن الهجري الثاني - و لعلها تكون قد أخذت بطريق مدرسة البلاغة (الاوروبية).

هذه هي النتيجة ومقدماتها الباطلة جمعاء، ما عدا مقدمة واحدة هي المتعلقة بكون الاجماع من جملة مصادر القانون الروماني. و لسنا نرغب في الاطالة هنا بذكر اوجه الفساد و البطلان في أصل هذه المقدمات و في طريقة تجميعها. فقد عقدنا في الصفحات السابقة من هذا الفصل مبحثا خاصا بالاجماع الاسلامي بيّنا فيه حقائقه كما هي في الفقه الاسلامي، و آخر خاصا

بالاجماع الروماني بيّنا فيه حقائقه كما هي في الفقه الروماني ، فاذا كان القارئ المحنيّ بهذه المسائل العلمية قد بدأ قراءة هذا الفصل من أوله فانه حريّ بأن يكون الآن على علم تام بأن ما عرف "بالاجماع" في الفقه الروماني انما كان شيئا يغاير كل المغايرة في أصله و جوهره و تطوره ما عرف "بالاجماع" في الفقه الاسلامي ، و أن ليس يوجد في أصناف الاجماع الاسلامي أيّ شيئ يشبه ذلك الروماني في قليل أو كثير ، و أن الذي يشبه الاجماع الروماني في المجموعة الاسلامية إنما هو ما عرف "بحصر المذاهب" ، هذا الذي نشأت فكرته في الازمنة المتأخرة و لا صلة له بالاجماع الذي كان مصدرا من مصادر القانون الاسلامي منذ بداية العصر الاول من عصوره . و اذا تذكر القارئ الحقائق المارّة المشار اليها هنا انتبه هو - لا محالة - الى فساد القول بأن الفقه الاسلامي استعار من الفقه الروماني شيئا لم يكن موجودا في الفقه الروماني و لا وجد قطّ من قبل و لا من بعد . لكن هذا القول

الفاسد هو المبدأ و المنتهى لشحنة الاباطيل في رسالة الدكتوراه.

و لننتقل الآن الى الصنف الثاني، الى المغالطة في الاستدلال. جرت المغالطة في حق منابع الاجماع على هذا المنوال الذي نكشف الغطاء عنه بجمل موجزات. أهمِل "اجماع الشوري" اهمالا كليا فلم يُجْرَ له ذكر - على الرغم من كونه الأهم الأول من اصناف الاجماع. و استُخِفّ ذكر "اجماع الامة" بالاكتفاء بأنه إنما كان ما تعارف عليه الناس. و عُظّم ذكر "اجماع العلماء" على وجه أنه قد كان الاصل الفقهي المنظّم الذي بُني عليه القانون الاسلامي بعد أن استعير من الفقه الروماني. فلما استقر على ذلك النحو أن اجماع العلماء هو الاساس الفقهي الاصولي الراسخ قيل عندئذ إن الآيات التي أوردها الاصوليون المسلمون من القرآن المجيد على انها منبع الاجماع و مبناه ليس فيها ذكر للاجماع و لا وجه دلالة عليه. (و قد اقتبسنا نصوص الآيات البينات في ما مرّ من هذا الفصل، في المبحث

الاول الذي أوجز حقائق الاجماع الاسلامي
- اجماع الشورى و اجماع الامة)، و هذه
قيلة حق اريد بها باطل المغالطة في الاستدلال.
فقد صحّ أن الآيات المذكورة لا تشير الى
اجماع العلماء. لكن هذه الآيات نصٌّ على
اجماع الشورى و اجماع الامة اللذين هما
الأصل في القانون الاسلامي المنصوص عليهما
المعتدّ بهما منذ نزول تلكم الآيات الآمرة باتباع
ما يتقرر بطريق أي منهما، هذا هو وجه
المغالطة، و هى مغالطة ربما تخفى على
غير رجال القانون و على رجال القانون غير
المتخصصين في مجال فلسفة القانون و اصوله.
و مهما تكن فقد وُضِعت في رسالة الدكتوراه
شحنةً مغطاة بمظاهر البحث العلمي، ثم
كشف عنها الغطاء في "الحرية الجامعية" من
جملة ما كشفت من أغاليط المدرسة الفكرية
الاوروبية. و تلك هي محنة العلم.

أما الكذب الصراح في العلم، و هو
الثالث و الاخير من الاصناف الثلاثة من الأباطيل،

فانه أضعفها بناء في البحث العلمي لكنه أشدّها اتجاها الى التضليل ، وقد وصفناه بنعت "الصراح" ، لا لأنه الامر المصرّح بحقيقته العاطل عن السترة و التزويقة المنتحلتين من أساليب البحث ، بل لأنه الكذب المحض الصراح ليس يمازجه في حقيقته شيء من الصدق و الحق.

و خلاصته القول بأنه ثبت عندنا (بطرق الاستدلال من الصنفين السابقين !) أن فكرة الاجماع لم تكن معروفة عند المسلمين طوال القرن الهجري الاول ؛ و أن البداية بادخالها في مجال القانون الاسلامي قد كانت من فقهاء العراق دون فقهاء الحجاز ؛ وأن الفكرة قد كانت رومانية الاصل و المحتد أخذها العراقيون من الفقه الروماني ؛ و بأن ذلك كله قد أوصلنا الى اكتشاف نتيجة جديدة هي أن "الاحاديث النبوية" التي استنبط منها الفقهاء و الاصليون المسلمون حجية الاجماع و كونه مصدرا للقانون انما كانت موضوعة في زمان متأخر بعد تأريخ انتقال فكرة الاجماع من الفقه الروماني الى الفقه الاسلامي .

فيكون الفقهاء المسلمون قد أخذوا أصل الاجماع من الفقه الروماني متكتمين على مأخذه، ثم صبروا مدة حتى استقر الاصل مصدرا للقانون عندهم، ثم بعد ذلك كذبوا على نبيّهم فوضعوا أحاديث على لسانه تأمرهم بإتباع الاجماع. هذا هو الصنف الاخير من شحنة الاباطيل التي تلقتها رسالة الدكتوراه من المدرسة الاستعمارية للفكر القانوني و قائدها الاخير المبرِّز، الاستاذ شاخت.

أما اذا تركنا هذه المدرسة الفكرية التي اصطنعوها لخاصة قيادة البحث في ميدان القانون الاسلامي، و ذهبنا الى مدارس الفكر الاوروبية نستعير مناهجها للبحوث العلمية و تحقيق الآراء و النصوص في الميادين غير الاسلامية للقانون و الفلسفة و الأديان و سائر العلوم الاجتماعية، فسنجد نصوص "الاحاديث النبوية" المشار اليها ثابتة الصحة و النسبة الى زمانها و قائلها ثبوتا قاطعا نادر التحقق بين كثير من النصوص التأريخية الموثقة وفق تلكم المناهج بأدلة هي أقل شأنا

في الاثبات، و وجه الثبوت القطعي قائم على ثلاثة أدلة كل واحد منها ينتهض برهانا بمفرده على صحة النصوص المروية عن الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة و التسليم، و اليك ذكر هذه البراهين على وجه الايجاز، و يعقبها نقل نصوص الاحاديث لتطلع عليها بنفسك.

البرهان الاول: أن معاني هذه النصوص متطابقة تطابقا تاما مع سيرة الرسول الكريم و أعماله الثابتة في التأريخ المتعلقة بالشورى مع اصحابه و التزامه وحدة امته و اجتماعهم على العقيدة و مبادئ الشريعة و العدالة، و هذه هي مجالات اجماع الشورى و اجماع الامة على التحديد، و يزيد هذا البرهان قوة أن لغة هذه النصوص و اسلوبها هما عين لغة الرسول و اسلوب بيانه المعروفين.

البرهان الثاني: أن هذه النصوص تردف وتفسر الآيات من القرآن المجيد التي كانت قد شرّعت

١٨

اجماع الشورى و اجماع الامة (و قد سبق أن اقتبسناها في المبحث الاول من هذا الفصل).
و لما كان القرآن كله انما اخذ من الرسول، على ما هو مقطوع به بتواتر الاجيال، فان الحديث المتوافق مع آي القرآن المرويَ عن الرسول لا بدّ أن يكون صحيحا لأنـه هو مصدر النصّين المتوافقين الثابت احدهما ثبوت اليقين القاطع.

البرهان الثالث: أن هذه الاحاديث (و هي خمسة) ليست من النوع الذي اقتصر تدوينه على الموسوعات التي جمعت بها السنن و بوّبت خلال العصر الثاني من عصور القانون الاسلامي - حتى يسوغ لاحد الذهاب الى أن الثقة بما فيها قد تتوقف على حسن الظن بأصحاب الموسوعات، هذا الذي لا يقتضي توفرهُ عند الشخص المسلم توفرَه عند غيره أيضا على قدم المساواة؛ بل أُن هذه الاحاديث (الا الخامسة منها) موجودة مكتوبة في مصادر العصر الاول للقانون

الاسلامي، في مدونات القانون و الفقه الاسلاميين التي بقيت لنا من مؤلفات أعاظم فقهاء العصر ذاته - و هي كلها مطبوعة محققة منشورة في مكتبات الجامعات و المكتبات العامة و تتوفر أحيانا كثيرة في أسواق الكتب. و أي شيئ في مجال الفقه و القانون أتم صحة و أوضح ثبوتا مما تقرأ في كتاب لفقيه عصر يقول لك هو فيه: هذا هو الحكم، و هذه هي القاعدة في هذا الموضوع، و قد أخذتهما من هذا المصدر المعين من مصادر القانون عندنا، وهذا هو النص ذاته المستنبط منه.

تلك هي البراهين. فأما نصوص الاحاديث فقد أحببنا قبل عرضها أن نعيّن مواضعها في كتب العصر الاول من عصور القانون الاسلامي. النص الاول (وفق تسلسل العرض هنا) موجود في الصفحة ١٤٠ من كتاب "الموطأ" (طبعة لكنو، سنة ١٢٩٧ هـ) لمالك بن أنس الاصبحي. و النص الثاني موجود

في الصفحتين ٩-١٠ من "كتاب الخراج" (طبعة القاهرة، سنة ١٣٥٢ هـ) لأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم، قاضي قضاة الدولة الاسلامية العظمى في زمانه؛ و موجود أيضا في الصفحتين ٤٠١ - ٤٠٢ و في الصفحة ٤٧٥ من كتاب "الرسالة" (طبعة القاهرة، سنة ١٣٥٧ هـ) لمحمد ابن ادريس الشافعي القرشي. و النص الثالث موجود في الصفحتين ٤٧٣ - ٤٧٤ من كتاب "الرسالة" (الطبعة ذاتها) للشافعي نفسه. و النص الرابع موجود في الصفحة ٩ من "كتاب الخراج" (الطبعة ذاتها) لابي يوسف الآنف ذكره. و هؤلاء هم من أعاظم فقهاء الامصار من العصر الاول للقانون الاسلامي؛ أولهم و ثالثهم (وفق تسلسل الاسماء هنا) حجازيان و الثاني من العراق؛ و إنهم أئمة أعلام، و كتبهم مراجع، و مراقدهم معروفة مزورة في المدينة و بغداد و القاهرة - حسب تتابع الاسماء. أما النص الخامس فموجود في الصفحة ٢٤١ من الجزء الثاني من "السنن" لابن ماجه (المتوفى في

٢٧٣ هـ)، و موجود أيضا في نص أكثر تفصيلا في الصفحة ١٤٥ من الجزء الخامس من "مسند ابن حنبل" (طبعة القاهرة، سنة ١٣١٣ هـ). و أحمد ابن حنبل هو من أعاظم فقهاء بغداد عاش في أواخر العصر الاول و أوائل العصر الثاني من عصور القانون الاسلامي، و الكتاب الملقب "بمسند ابن حنبل" موسوعة حديث و فقه جمعها ابنه عبدالله ابن احمد ابن حنبل من مرويات والده و خلاصة اجتهاده في الاحكام الشرعية (و فيه بعض ما لغيره أيضا). و عبد الله (كابن ماجه) من علماء العصر الثاني من عصور القانون الاسلامي؛ و لذلك لم نعدّ الكتاب من مصادر العصر الاول - على الرغم من أن احمد ابن حنبل نفسه كان قد أدرك أواخر العصر الاول. (و قد مرّ علينا في صدر هذا الفصل بيان عصور القانون الاسلامي و تمييز خصائصها و تواريخ بداياتها و نهاياتها). هذا؛ و للمصادر المذكورة طبعات اخرى قديمة و حديثة غير التي اشرنا اليها.

و في ما يلي ننقل نصوص الاحاديث متتابعة مرقمة كما أشرنا اليها هنا :-

١- "ما رآه المسلمون حسنا فهو عندالله حسن"،

٢- "نضر الله امرءا سمع مقالتي فاداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه؛ و رب حامل فقه الى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: اخلاص العمل لله؛ و النصيحة للمسلمين؛ و لزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم".

٣- "أكرموا أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ثم يظهر الكذب، حتى ان الرجل ليحلف و لا يستحلف و يشهد و لا يستشهد. ألا من سرّه بحبحة الجنة فليلزم الجماعة ..."،

٤- "من فارق الجماعة و الاسلام شبرا فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه"،

٥ـ "ان امتي لا تجتمع على ضلالة، فاذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم".(١)

---

(١) و هذا هامش ينفع المعنيين باسانيد هذه الأحاديث الشريفة و طرق روايتها في اوائل العصر الثاني من عصور القانون الاسلامي، ففي ما يلي نذكر مخرج كل حديث و نشير الى موضعه من كتابه، حيث توجد تفصيلات الرواية و الأسانيد لمن يريدها.

الحديث الاول: عبدالله بن أحمد ابن حنبل. "مسند ابن حنبل" (طبعة القاهرة ١٣٦٨-١٣٧٤) ج١ ص ٣٧٩.

الحديث الثاني: موضع الاستشهاد فيه هو "و لزوم جماعتهم". و قد ورد هذا الأمر في أحاديث عديدة و متعددة النصوص منها: ما اخرجه البخاري في كتاب الفتن ج٩ ص ٨٤ و كتاب الأحكام ج ٩ ص ١١٣؛ و ما اخرجه الترمذي في باب ما جاء في لزوم الجماعة ج ٩ ص ٨ - ١٣؛ و ما اخرجه عبد الله بن احمد ابن حنبل في "المسند" ج ٥ ص ١٤٥؛ و ما اخرجه ابن ماجه (محمد بن يزيد المتوفى

عام ٢٧٣ هـ) في "السنن" (طبعة القاهرة ١٣١٣ هـ) ج ٢ ص ٢٤١ . و قد سلف ذكر من سوى ابن ماجه في المبحث الأول من هذا الفصل .

الحديث الثالث : عبد الله بن أحمد ابن حنبل . "مسند ابن حنبل" ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٣٠ .

الحديث الرابع : محمد بن اسماعيل ، الامام البخاري . "الجامع الصحيح" (طبعة القاهرة تمت في ١٣٤٨ هـ) ج ٩ ص ٨٤ ، ١١٣ .

الحديث الخامس : محمد بن عيسى ، الامام الترمذي . "الجامع الصحيح" ، و يلقب بسنن الترمذي ايضا ، (طبعة القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣ هـ) ج ٩ ص ١١ .

الآن، و قد تم لنا تمييز الحقائق من الاباطيل و فرز الصحاح الناصعة عن مكذوب الاقاويل، نرى التصريح لزاما علينا بأنا كنا نعلم هذه الحقائق من العلم أيام شحنّا رسالة الدكتوراه بشحنة الاباطيل المفضوحة هنا في "الحرية الجامعية". و لطالما استغفرت الله العفوّ الكريم في حينه، و هو العليم بأحوال عباده، و استغفره الآن و كل حين أيّما استغفار. ثم اسيت و آسى على العلم مما يصيبه كلما حجبت عنه حرية العقل بحجاب صفيق؛ و أعتذر الى أهل العلم و علماء القانون في كل زمان و مكان لما صنعت مكرها لا بطلا في ذلكم الأوان. و ان لهم و لكل قارئ في هذا الكتاب حق مجابهتي و مساءلتي بقوله: و لماذا سكتّ عن الحق زمانا طويلا، فلم تفضح محنتك و محنة العلم في جامعة لندن، حتى أوفيت على تأليف "الحرية الجامعية"؟

الجواب الصدق أني ما سكتّ و لا

صمتّ، بل صدعت بالقول الحق فور انحسار كابوس الإكراه عن صدر الغريب المغلوب على أمره. و اليكم بيان الحال في ايجاز. يوم إذ اتممت تأليف الرسالة (طبق الشروط المقررة لكلية القانون بالجامعة) كتبت لها مقدمة ضافية أفصحت فيها عما دهاني به سلب الحرية الجامعية في الجامعة من الاهوال، و عن انصياعي للاباطيل في الرسالة مكرها بحكم الاحوال، و أشرت الى هاتيكم الآراء في منابع القانون كيف اصطنعت من الاكاذيب و الى العلم الزكي النزيه أيّان استبيحت منه المنابر و المحاريب. ثم طبعت الرسالة بالآلة الكاتبة و طبق الاوصاف المقررة في نظام الجامعة و بالعدد الوافي من النسخ المحددة للجامعة و النسخ المرادة حينئذ لوزارة المعارف العراقية صاحبة البعثة العلمية من اشخاصها صاحب الرسالة. و وضعت المقدمة الضافية في مكانها جزءا بادئا من الرسالة، فجلِّدت معها في نسخها كلها ما عدا ثلاث نسخ رتبت على نحو آخر. و الثلاث المستثنيات هي التي وجب علينا

تقديمها الى الجامعة لارسالها الى الممتحنين أعضاء هيئة المناقشة الذين لا يعلن اسماء من سوى الاستاذ المشرف منهم حتى يوم المناقشة. فأما هذه النسخ الثلاث فقد بدأتها بمقدمة قصيرة مجردة من الحقائق خالية من ذكر وقائع الحال المفتضحة في المقدمة الضافية - هذه التي لو عرف بمضمونها قبل المناقشة أو قبل الاعلان الرسمي عن منح المرتبة العلمية لكان الاخفاق الذريع و الرسوب السريع هما النهاية المنتظرة دونما أدنى شك. ثم قدمتُ النسخ الثلاث الى الادارة المختصة بالجامعة، و احتفظتُ بجميع النسخ الاخرى ذوات المقدمة الضافية الصادقة في منزلي بلندن لم يعلم بها في الجامعة احد غيري. فلما انقضت المناقشة، ثم اعلنت الجامعة منحها إيّاي مرتبة" دكتور بين دكاترتها في كلية القانون، نقلت النسخ جميعها التي كانت في حوزتي الى السفارة العراقية و سلمتها الى السيد الملحق الثقافي لارسالها الى وزارة المعارف العراقية و الاحتفاظ

وقلت للقائمين بالأمر في الوزارة: لا اوافق؛ ولن أترجم الرسالة؛ وليقرأ من يعرف الانكليزية منكم مقدمة رسالتي هذه المستعظمة عندكم والمستصغرة عندي؛ ومتى أشأ اؤلف في موضوعها كتابا آخر بالعربية ولا اترجم.

فأما المقدمة الضافية فقد ألحقت نسختها هنا مع ترجمة عربية بهذا الفصل من "الحرية الجامعية"، فتألف منها الملحق الثاني في آخر الكتاب.

وربما ثقل هذا الفصل على قارئ الكتاب حيثما احتوى مسائل علمية تخرج عن نطاق الادب المحض، أو استعراض "بَناتِ عَبَرٍ" - هذه التي تَقْبُحُ في كل عين ترى المحاسن وكل قلب تُبصر الحسن في الاشياء والاحوال. فلنطلب ختام الفصل اذن بما يَخِفّ وما يجمُل. الخفيف هو قول مضحك ورد في كتاب الاستاذ شاخت نفسه الآنف ذكره. فهو، بعد أن قرر اعتباره

الاجماع من اصول الفقه الاسلامي بضاعة رومانية استوردها الفقهاء المسلمون لأنفسهم من الفقهاء الرومانيين، قد تحتم عليه ذكر الطريق التي سُلِكت لايصال البضاعة. فلما أعياه التماس طريق تعقل قال: إنها وصلت بطريق "مدارس البلاغة". وما كانت مدارس البلاغة هذه غير بعض المعلمين و المتعلمين المتخلفين في أوروبا في ظلمات عصورها الوسطى أخذوا، بعد انحسار القانون الروماني و فناء الامبراطورية الرومانية، يتدارسون نصوصا من مجموعة القانون الروماني من حيث كونها لغة لاتينية سليمة لا من حيث كونها قانونا أو فقها، اذ انهم أنفسهم ما كانوا من أهل القانون بل طلاب لغة و بلاغة مغمورين لا صلة لهم بالحجاز و لا بالعراق. فان كان لا بد من افتراض صلة لهم متخيّلة فلا مناص من افتراضها بينهم و بين بعض الاقدمين من شعرائنا و ادبائنا و بلاغيينا - اذ الاقدمون من فقهائنا و ائمتنا في القانون ما علم أحد منهم حرفا واحدا من اللسان و القانون اللاتينيين؛ ثم ان التخيّل أرجى

ما يكون في باب الشعر و الشعراء بعيدا عن جبلّة الفحص و التدقيق عند القضاة و الفقهاء .

فلا بد و الحال هذه أن يكون معلمو البلاغة الاوروبيون في عصورهم الوسطى الجاهلة الداجية قد نقلوا "نظرية الاجماع" الى لبيد بن ربيعة و حسان ابن ثابت و عبدالله ابن رواحة ، فالاصمعي و أبي نؤاس، و نقلها هؤلاء الى سادتنا و فقهائنا امير المؤمنين على ابن أبي طالب و عبدالله بن مسعود و عبدالله بن عمر - على نبيهم و عليهم أجمعين أفضل الصلاة و التسليم - فالى أبي حنيفة و مالك بن أنس و أبي يوسف و الشافعي و محمد ابن الحسن الشيباني !! ذلك لعمر الحق قول مضحك . و اذا شئت فلننسج على منواله و نقل : إن تأمين السيارات الالزامي عقد مسمى ؛ و العقود المسماة مذكورة في القانون المدني العراقي ؛ و نرى التأمين الالزامي في قانون المملكة البريطانية ؛ فلا بد أن يكون رجال القانون

الانكليز قد أخذوا احكام التأمين من رجال القانون العراقيين، و ذلك بطريق الاساتذة العراقيين الذين درّسوا علوم البلاغة العربية في "دار المعلمين العالية" ببغداد، و كان لهم فيها زملاء من الانكليز يدرّسون في قسم اللغة الانكليزية - وإن في ذلك لمزيد استدلال على صحة ما اكتشفناه من مرجع أحكام التأمين في قانون المملكة البريطانية المتحدة !!

أما الجميل نختتم به هذا الفصل و ننتقل منه الى الفصل التالي فهو هذا الوصف الوادع الصادق تستزين به قصيدة حق في مسار العلم و مصائره بين الامم و الحضارات نحبّ ننشدها للقارئ على شفاه الحروف و الكلمات، عساه يشتفّ من أنسامها و انغامها رَوحا و رُوحاً و بهجة و نشاطا،

" فرعون "

طغى فرعون عصر الذرة العاتي
فقال ابنوا بايدي العلم آيات
و صرحا من صواريخ و آلات
لعلي أبلغ الاسباب أسباب السماوات

بنى آباؤنا الماضون أعواما
فدعهم يفرحوا بالعلم أياما
فما انزاح النهى في الارض ما قاما
بنقل العلم أهل العصر من ماض الى آتي

فأما إن طغى بالعلم و استشرى
فريق لم يرد بالحكمة الخيرا
و أورى الحرب أورى الفتنة الكبرى
فذاك الجهل لا العلم الذي شاد الحضارات

زَيان العلم اخلاق و ايمان
فقطع الصنو عن صنويه عدوان
و صرح الحقل اخدود و صوّان
متى ما استُلَ من أحضان روضات جميلات

أفِق يا أيها المستغرب الصادي
سراب جاهلي زالك في وادي
يفاع الشرق فيه الكوثر الجادي
هلّم ارجع الى روح و ريحان و جنات

فهذا المشرق المزدان بالنور
و حبّ في رحاب اللّه مبهور
لَناجٍ من شَرىً بالغرب مسحور
و راجٍ طيبة البشرى و ينبوع الحضارات.

الفصل السابع

جامعات في ضياع

إذا استفتحت تقرأ في كتاب سنوي لجامعة اوكسفورد أو جامعة كيمبرج او الجامعة الرائدة التي أطلنا التساؤل عن بعض شؤونها آنفا، أو في مجموعات النظم و المناهج الدراسية لهذه الجامعات أو لأمثالها أو لما هي أقل منها شأوا من الجامعات الاوروبية، و فتحت عينيك على تقسيم فصول العام الدراسي و ألقاب هذه الفصول و على النظم و المناهج الدراسية و الاجتماعية و منازل الاساتيذ و أهل الحل و العقد، و فتحت بصيرتك لاستقصاء مواضع العبادة في المكان و مواقعها في التنظيم الجامعي و في النفوس، إذا صنعت ذلك أبصرت المقصد الأسنى من أصل تأسيس الجامعة و بقائها يطالعك به صنوف من دلالات الصراحة و الاشارة و الايماء و الإفصاح بمقتضى واقع الحال. ثم اذا صنعت ذلك

طالعك المقصد الأسنى في صورة ثالوث جميل النسق تجمل بيانه الاسطر العربية التالية :-

فالمقصد الأسنى هو : تزويد الطلاب بتربية جامعية عالية ؛ و الاكثار من المعارف و العلوم بزيادة الجديد فيها الآتي من البحث و الاكتشاف ؛ فإعلاء شأن الحضارة المسيحية بذلك كله على ممر العصور .

و لا يذهبنّ بك الظنون - يا أيها الشرقي - إلى أن هذا البيان حبر على ورق من مثل ما قد تجد للجامعات في الشرق من نص على مقاصد التأسيس. بل هو ذكر لأمر قائم و أصل ماثل في كل شيئ بالجامعة ابتداء من عقول الأساتيذ و التلاميذ و انتهاء الى مباني المعاهد و المدارس و قلوب البوابين الحاضرين فيها لدى الأبواب . ففي كل من اوكسفورد و كيمبرج بالمملكة البريطانية اكثر من احدى و عشرين مدرسة و معهدا ، و في كل واحدة منهما اكثر من احدى و عشرين كنيسة ، و في كل مدرسة عامرة تقوم كنيسة

هي أتم اجنحتها بناء و اجملها منظرا و اكثرها عمارة بالأثاث و بالصلاة و المصلين اساتذة و طلابا . و مدارس جامعة لندن محاطة بكنائس العاصمة من كل صوب ؛ و في المدارس نواد وجمعيات للنشاط الديني و للتبشير . و إن من عمدائها و رؤسائها و اساتيذها في كل الأقسام و الفروع قساوسة أو مبشرين منتمين الى مؤسسات التبشير . (و لقد سار المستعمرون السيرة ذاتها في المدارس و الجامعات التي أقاموها خارج بلادهم؛ فالجامعة الأمريكية في بيروت - مثلا - كان رؤساؤها المتتابعون قاطبة من القسس حتى العقد السادس الميلادي على ما نعلم ، الا رئيسا واحدا كان من جملة المبشرين و ان لم يكن قسا) . و العلاقة الوطيدة بين التبشير و الاستعمار من تلكم الديار لم تعد تخفى على من وافتهم نعمة الاطلاع على الكتاب الموثق " التبشير و الاستعمار في البلاد العربية " (الطبعة الخامسة - لبنان ١٩٧٣) للكاتبين الفاضلين الدكتور عمر فرّوخ

و الدكتور مصطفى خالدي ، ثم لا تظن أن ما أسلفت ذكره هو السرّ الاعظم في توجه اولئك القوم إلى المقصد الاسنى المنشود الملتزم به في جامعاتهم .

بل السرّ الأعظم إنما هو الراسخ في عقولهم و قلوبهم من ذلك الايمان بدينهم و حضارتهم الذي يدفعهم الى التقدم في ميادين هذه الحياة تقدم المجتهد المبدع الواثق مما يصنع وما يأتي و يدع . و خاصة أهل العقول فيهم و عامة سوادهم الأعظم في ذلك سواء . فهم بين رائد متَّبَع و سالك متَّبِع لا يرتضون غير قادتهم أئمة و لا عن حضارتهم و شعائر دينهم بديلا . و إن فيهم المفكر والفيلسوف و المتقن و المجدّ و المبتكر و المكتشف و المبدع و المجدّد في كل فرع من فروع دوحة العلوم النظرية و التطبيقية . و إن في هؤلاء قساوسة و مطارنة ، و إن في هؤلاء مبشرين و مبشرات داخل تخوم الوطن

و خارجها ، و إن نشأن أقل هؤلاء نصيبا في الدين هو أنه المواطن المصلّي الحفيظ على السرّ الأعظم المجمع عليه لا يشذ عنه الا مارق أثيم . و كذلك اتحد سرهم الأعظم و مقصدهم الاسنى في الجامعات و المدارس و في الأفئدة و العقول .

و إذا شئت فألق نظرات فاحصة الى الجبب (المسماة بالروب) الجامعية للخريجين ، و الى الشعار المرسوم لكل مدرسة و جامعة ، و الى الطغراء المختارة أشكالا و الوانا لتزيّن صدور وثائق الشهادات الجامعية ، تجدها كلها مفصحة عن المقصد الاسنى أو رامزة اليد في بلاغة إشعار بالتعظيم و التقديس للسر الأعظم ، إنهم لكذلك . و ان لهم في كل دولة من دولهم المتقدمة مدارس فكرية يؤسسها و يقودها علماؤهم في كل مجال علم نظري و فن تطبيقي . فالأصالة ههنا تتجاوب مع المقصد الأسنى فهو يعلو بها و هي تعلو به . و الجبة و الشعار و الطغراء

تزين حواشيهما في ربوع الفكر و الحياة .

وإذا انتقلت الى ديار الإسلام ، بل - استغفر الله - إلى الديار الاسلامية (فليس للاسلام اليوم دار)، فماذا عساك تجد من أمر الجامعات ؟ مقصدا أسنى يجمع ؟! أو سرا أعظم يوحد ؟! أو أصالة في العقل و الفكر و العمل و السلوك تقوى على نشدان حضارة اسلامية و الحفاظ عليها ؟! الحق مرّ ، و ما كل ما يعلم يقال . لكن قد آن الأوان لمن في الشرق من بني الانسان أن يتجاوزوا بانظارهم أرنبة الانوف إلى ظاهر البنان . فلنقل إذن بعض القول في شأن الجامعات في البلاد الاسلامية عامة و البلاد العربية خاصة . "فذكّر إن نفعت الذكرى . سيذكّر من يخشى . و يتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها و لا يحيى " .

تذهب في جامعات هذه الديار
إلى مدرسة (كلية) الطب فاذا علوم الطب
تعلّم باللغة الانكليزية أو اللغة الفرنسية.
و ليس للترجيح من حكمة إلا أن هـذه
كانت من قبل مستعمرة بريطانية و هذه
مستعمرة فرنسية. و لربما نالت الحكومة
صاحبة الجامعة الاستقلال (كما يسمى!)
قبل نصف قرن أو أقل من ذلك أو أكثر،
لكن اللغة الاجنبية ما تزال هي الغالبة. و إذا
سألت لماذا تُركت الحال في التعليم على
سابق المنوال أجابك أحدهم بقيلة جاهل
قد عدم العلم و الحمية معا فقال: لأن
اللغة العربية لا تصلح لتعليم العلوم، فهي
لغة شعر و أدب. يقولها و هو يجهل أن
سادته المتبوعين في الطب إنما درسوا في
مدارس طب كانت تلقت علومه من مصادر
اسلامية مؤلفة باللغة العربية ثم ترجمت
بعد زمان الى اللغة اللاتينية. فهلّا ائتسى
صاحبنا تأسّي متبوعه فترجم الكتب المقررة
بين يديه إلى اللغة العربية . و يقولها
و هو لا يعي أن هزال علمه بلغة وطنه

لا يستلزم كون هذه اللغة مفقودة أو هزيلة غير صالحة للتأليف و التعليم. و هكذا تجد الشأن في مدرسة الصيدلة و مدرسة الهندسة و مدرسة العلوم .

و لنترك لغة الوطن كما تركها صاحبنا استاذ الطب ، و نذهب مذهبه الى أن هذه العلوم لا تصلح إلا للغة الاجنبية ، فننظر بعد ذلك الى مبلغه هو و أصنائه في أصل هذه العلوم. إنهم على وجه اليقين ليسوا أئمة فيها. و إنهم على وجه اليقين ليسوا فيها بأصحاب مدرسة فكرية تنسب اليهم أو إلى بلدهم و امتهم. بل إنهم ، على اليقين القاطع باعترافهم و باقرار واقع حالهم، لا يزيدون أنملة على كونهم أتباعا للمدرسة الفكرية و التعليمية الانكليزية او الفرنسية في الطب . و إن اكثرهم لفي ضياع من العلم بين تدريس في الكتب الأجنبية ليس للمدرس في مجالها من بحوث تزيد أو تغير من مسار العلم

شيئا، و بين "عبادة خاصة" يقضون فيها الطرف الأخير من النهار و الطرف الأول من الليل. هذه حال الأكثرين عددا. و ليس للأقلين من حول في تغيير الحال. و خاتمة المطاف في التعليم هي مثابة مدرسين يأوون بأنفسهم و بتلاميذهم إلى خيمة مدرسة فكرية نظرية و تطبيقية ليسوا هم بناسجيها و لا ناصبيها و لا غارزي أوتادها. أما الطالب المسكين فينشأ مبتدئا بهموم لغة أجنبية مفروضة عليه لتلقي علوم الطب، ثم منتهيا بما حصّل بين أيدي أساتذة ما أرادوا ليصبحوا أئمة في الطب مجتهدين بل اكتفوا فيه بنصيب التابع المقدور و المقلد المغمور.

و كذلك هي أيضا أصل أحوال أهل الصيدلة و أكثر فروع الهندسة و العلوم اساتذة و طلابا، و إن وجدت في مظانها فوارق راجعة إلى اختلاف تداول هذه المعارف على درجات متفاوتة.

و لينهم جميعا سلكوا مسلك اساتذة علوم القانون و الاقتصاد ، فان هؤلاء أيضا هم مقلدون قد أصغوا دون منازل الاجتهاد ، و متبعو مدارس فقهية لاتينية أو سكسونية ، و مذاهب اقتصادية انكليزية او اوروبية. بيد أنهم اتخذوا اللغة العربية واسطة للتدريس و التأليف - على الرغم من ضعف ظاهر عند كثيرين منهم في اتقان هذه اللغة . و إنهم ينقلون من المصادر الأجنبية معانيها فيلبسون المعاني أثوابا من العربية ، أو يعمدون إلى الترجمة على نحو من الأنحاء . و إنهم يلقون الدروس و المحاضرات بلغة عربية - فان لم تكن لتأتي على السنتهم فصحى خالصة فهي خليط منها و من "لغة المطبخ" على أيّ تقدير . و هذه الطريقة و إن كانت ليس من شأنها البلوغ بسالكها مبلغ الرجال الناهضين الأبرار فانها أقل شرا من مهابط الاستسلام التام للغة الأجنبية الحاملة حضارة أجنبية .

و لننصرف الآن من مدارس القانون
و الطب و العلوم الى مدارس الآداب .
فهَهنا العجب العجاب . المدرسة ذات أقسام للغات متعددة منها العربية و الانكليزية و الفرنسية و الألمانية وما إليها . هذه مدرسة (كلية) آداب في بلد عربي ، لكن المعلمين و المتعلمين فيها و القائمين بأمر إدارتها يعمهم شعور مفعم بأن أخسّ الأقسام هو قسم اللغة العربية و أرفعها هو قسم اللغة الانكليزية أو اللغة الفرنسية - على وفق الماضي القريب للبلد من كونه مستعمرة انكليزية او فرنسية .
و تذهب إلى قسم لغة اجنبية فتلفي عناية من الطلبة و الاساتذة بعلم الصوت في تلك اللغة . فاذا سألت عنه في قسم العربية هالك من الأجوبة المضحك المبكي :
ليس يوجد في منهاج الدراسة علم من هذا القبيل ؛ و القوم غفل من العلم باصول "علم المخارج" و "علم التجويد"؛ و إن كثيرا منهم يجهل أن هَذين هما علمان قائمان

و أن الرواد و الأئمة في مجال علم الصوت هم العلماء المسلمون.

و في قسم اللغة العربية عجائب. تراهم يدرسون الأدب العربي و كأنه إنما كان قد نشأ في فرنسا و ألمانيا و بلاد الاغريق، و كأنه كان من قبل و من بعد مقطوع الصلة بالحجاز و نجد و مصر و العراق و اليمن و سائر بلاد العرب و المسلمين. إنهم يدرسون الشعر العربي بمعزل عن تأريخ العرب و المسلمين. و يقسمونه إلى "رومانسي" و غير رومانسي فيحيطونه باوضاع الشعر في بعض أرجاء القارة الاوروبية. و هنالك ما هو أدعى إلى العجب و الاستغراب. أساتذة للادب العربي لا يقيمون أيسر قواعد الصرف و الإعراب للغة العربية- و إن فيهم الممنوح لقب "دكتور" من جامعات عربية أو جامعات اوروبية، و فيهم المتعلم بين أيدي المستشرقين في بلادهم. و تقرأ مما ألفوا كتبا منها العاطل عن زيان الاسلوب و المتسم بركاكة

التعبير، و منها المشحون بأخطاء في اللغة و الاصول تنحط إلى حضيض الجهل بقواعد "كان" و اخواتها وبالتمييز بينها و بين الحروف المشبهة بالفعل. فلما كثر الجاهلون فيهم اتسع المجال لبعض الأدعياء الدعاة إلى إهمال علوم العربية و حذف الإعراب عن آخره في اللغة تأسيا باللغة العبرية المتأخرة.

و لقد وجدنا بين اساتذة الأدب العربي في جامعة من الجامعات العربية من لا يقيم لغة الجامعة الأجنبية التي منحته شهادة "دكتوراه". فلما سألنا عن حاله قيل لنا إنه أثناء دراسته في الجامعة الأجنبية لقي فاضلا عربيا اشتغل بالتدريس فيها بعد نيله مرتبة دكاترتها، فتولى المدرس الفاضل التلميذ المفضول بمزيد عطف و شفقة دفعه إلى أن يترجم الى اللغة الأجنبية ما كان يكتبه المفضول بالعربية توليفا لرسالة دكتوراه؛ ثم إنه يُسّرت المناقشة للمفضول ذات صباح فنال الشهادة و أمسى فاضلا! و لقد حدثني زميل للدكتور المفضول أيام دراستهما العليا أن هذا خلال

المدة بين تقديمه الرسالة و بين تحديد موعد المناقشة كان مصروف الهمة الى كتابين يكبّ عليهما في مكتبة المدرسة: نسخة من الرسالة، و قاموس انكليزي - عربي يستخرج منه الكلمات من رسالته التي يجهل معانيها. فلما طالت به المدة على هذا الوضع ادرك الزميل من واقع الحال ان الاستاذ الفاضل ولي نعمة زميله المفضول لا بد ان يكون قد تجاوزت يده البيضاء (السوداء) حد الترجمة لصاحبه الى الانكليزية الى حد السخاء بانشاء اجزاء من الرسالة مادة و لغة، فاستعصى على مقدم الرسالة فهم كلم جعلها في الانكليزية ولم يكن صاحب معانيها في العربية. و الاستحضار للمناقشة يوجب استعلام ما لم يعلم من قبل. فهو بذلك معذور واضح المعذرة، و أنت أيها القارئ المجدّ إذا استغربت ما رويناه لك فاذكر - سامحني اللّه و إياك - ما بيّنّاه آنفا من اشتمال كليات الآداب على العجب العجا ب.

و قد - و الله - دخلت قاعات الدرس في كلية من كليات الجامعة الامّ في

بلد عربي و تجولت فيها و هي خالية من روادها فرأيت بامّ عيني ما يدمي كل قلب حريص على مستقبل البلاد و الأحفاد. رأيت المناضد و الكراسي و الأرائك وبعض الجدران قد لطخت بعبارات و صور من تلك التي يثبتها سفلة من الافرنج في بلادهم على جدران المراحيض العامة داخلها. و رأيت التلطيخ على طبقات تكاثف بعضها على بعض و تداخلت فيها الخطوط ألوانا أو منقوشة بأدوات حافرة. يا لسوء المنقلب! أيصنع أبناء الشرق بقاعات الدرس في جامعاتهم مثل ما يصنع السفلة الضائعون من أبناء الفرنج بالمراحيض العامة في بعض ديارهم؟! ثم يا لسوء المنقلب! أين هي التربية الجامعية في مدارس العلم و معاهده و بين الاساتذة الفضلاء المربين و الطلبة النجباء المقتدين؟! أرأيتم الآن لو بصّرتكم بمبعث الداء و مدخل البلاء. إنه غياب "مقصد أُسنى" و "سرّ اعظم" يجتمعان في عقول الاساتيذ و التلاميذ و في قلوبهم فيجمعانهم جمعا امة واحدة

تنشد بناء الطريف على التليد حضارة شرقية القسمات جديدة الاعطاف راسخة الاصول تتلاقى على منابرها عبقريات الأجداد السابقين و الأحفاد اللاحقين. هذان هما روح الجامعة و الحضارة، فاذا فقد الروح لم يعد الاستاذ قدوة و لا التلميذ مقتديا و لا الجامعة جامعة و لا الحضارة حضارة. و متى افتقدت الأصالة على ذلك الوجه انبسط الميدان للإمّعات، و الامّعة امّعة في المفاسد و لا يبالي.

ثم أين هي التربية الجامعية و الأخلاق العلمية حيث تلفي الاساتذة الجامعيين في بعض الكليات و الجامعات يتحدثون جهارا في شيوع ظاهرة الغش في الامتحانات. إنهم يبدون تألما من الداء و يكتمون عجزا عن الدواء ؟! و اخري يجهر التلميذ و يتباهى بالمقدرة على الغش محتالا متجانفا عن انتباهات الاستاذ الرقيب!

أما الناجحون نجاحا باهرا في ذلك كله فهم نفر منبثون هنا و هناك ممن منحوا

بالغرب (و لا سيما بأمريكا) شهادات دكتوراه في علم الاجتماع فرجعوا إلى أهل الشرق مبشرين بأن الحضارة الحديثة قد ارتسخت على قوانين طبيعية هي التالية اقتضابا : الانسان مفقود الارادة ليس له غير المحاكاة و الإتّباع في الشؤون الاجتماعية ؛ الاسوة بالماضين تخلف أيّما تخلف ؛ الشهامة و النجدة و السخاء و الصدق و محاشاة الرذائل و مواتاة الفضائل و الوعظ في محامد الاخلاق و التنافس في المعروف و التناهي عن المنكر - كل اولئك من أحوال البداوة المنقضية ليس لها موضع و لا مرجع و لا مدخل في الحضارة الحديثة المهيمنة علينا إن شئنا و ان أبينا ؛ ألا ترون أن النساء قد تبرجن و فيهن من تخلّعن و أبحن زيناتهن و أن الرجال قد قارعوهن الكؤوس أجناسا في السر و العلن و هم مرتدون سراويل رعاة البقر الأمريكيين ؛ هذه هي مقتضيات الحضارة و حقيقتها و مسالكها في مجتمع الشعوب اليوم ليس لها دافع و لا عنها بديل . أجل ، لقد ربح

الباثون بما عمل المنبثون؛ و خسرت في الشرق أوطان و شعوب و جامعات ، و طيبون من أهل هذه الأوطان و طيبات .

أما مقارنة مستوى الحلم و التعليم في هذه الجامعات بما كان في هذه الجامعات ذواتها قبل ربع قرن او مزيد ، أما هذه المقارنة فالذائع فيها اتفاق الآراء على الجنوح إلى انخفاض مشهود بالاضافة الى الدراسة العالية . هذا هو الوضع العام . و قد يرى في كلية من جامعة شيئ من التقدم هو راجع إلى توفر آلات و عُدد جديدة أو إلى تقدم أبلغ . و أعم في المدرسة الفكرية الأجنبية المتبوعة - و هذا على بقاء المتبوع متقدما و التابع متأخرا . وقد يحدث تغاير في المستوى هنا و هناك بارتفاع و انخفاض جزئيين مرجعهما إلى انتقال اساتذة مجدين أو نزوحهم من جامعة إلى جامعة أو من بلد إلى بلد طلبا لمزيد أجر يفي بمعاش اسرهم أو هربا من أحوال لا يحتملونها في جامعاتهم أو في أوطانهم . و للانخفاض

علل اخرى عديدة لا محل هنا لذكرها ، لكنه هو الواقع على أيّ حال .

فأما الدراسات العليا فليست بأحسن من تلك حالا ، بل قد يكون الرزء فيها أكبر . و يكفي بيانا لتفاقم الادواء فيها أن الرئيس الأعلى المرموق لدولة عربية مرموقة قد ساءه انحطاط الدراسة العليا في جامعات بلاده إلى حدّ أوجب تدخّله الشخصي و النذير بواقع الحال في اجتماع عقده مع اساتذة الدراسات العليا صارحهم فيه و طلب منهم أن يصلحوا ذوات أنفسهم . هذا ، على أنا نقرأ أحيانا رسائل نيلت بها شهادات عليا ، فنشاهد فيها معالم الذكاء عند المؤلف و حرصه على العلم و حسن تأتّيه في الاستدلال و الاستنتاج . لكنّ مثل هذا إنما هو فذّ نشأ في العلم نشأة خاصة ليس فيها للجامعة انتمى اليها كبير فضل ، ثم صادف من قد ارتقى إلى كرسي الاستاذ ارتقاء العالم المحقق العطوف على تلاميذه فاخذ هو منه و اقتدى

بهديه. و ليس يخفى أن هذا غير ما نحن بصدده من مستوى للدراسة العليا نتمنى ارتفاعه إلى حد أدنى لما هو المقبول المرجو في حق العلم و العلماء و الجامعات.

تلك هي منازل الدراسات العليا على قدر التعلق بأصول الموضوعات العلمية و الموضوعات الفنية التي تنصب عليها كل دراسة أو رسالة. أما أطراف إتصال هذه الدراسات في موضوعاتها بحضارة الأمة، الغابرة منها و الحاضرة إن كانت هنالك من حاضرة، أما هذه الأطراف فليست ترى إلا منقطعة انقطاعا تاما في مكان و شبه تام في مكان آخر. ففي مجال الطب - على سبيل المثال - لست أعلم حتى يومي هذا بإقامة درس في مدارس (كليات) الطب لتأريخ علوم الطب، لتأريخ لها متفق على مواده و موضوعاته و مسائله يدرّسها في كل مدرسة طبيب عالم بالطب متخصص في تأريخ تطوره، و لا يعهد بها إلى مدرس

للتأريخ العام قصاري علمه في الطب نتف من أخبار بعض الأطباء و المتطببين و المستشفيات. فان خاصة تأريخ كل علم ليس يحسنها غير العالم في ذلك العلم. و ان أمثال تلكم المواد و الموضوعات و المسائل لمما تستحض بوسيلة دراسة عليا ينصرف إليها طبيب في مظانها. أعني أن يتوجه الطبيب الباحث الى موضوع بحثه على صراط المنهج الاسلامي الحاث على تبين الحقائق في واقع الأمر و الصدق في استعراضها كما هي دون أن يقفو في شيء منها ما ليس له به من علم. و ان دراسة عليا كهذه لا تستقر على جمع ما في كتب التأريخ العام من انباء الطب و الأطباء، و لا على كتب الطب العربية القديمة وحدها، بل على متابعة مفصلة لمنابع الطب الاوروبي الحديث و مراحل تطوره و تتابع مصادره العلمية مرحلة فمرحلة. يأخذ - مثلا - أهم مراجع علومه الرئيسية في القرن الميلادي العشرين لكيما تتعين له منها مراجعها في القرن التاسع عشر، ثم مراجع هذه في

القرن الذي قبله ، و هلم جرا . و متى صنع ذلك انكشفت الأواصر كلها المتينة و الدقيقة بين علوم الطب في أطواره المتلاحقة و بين الحضارة غابرها و حاضرها .

و قد يساعدنا إلمامنا بتأريخ الحضارة الاوروبية على التنبؤ مجملا بما سيرى مثل ذلك الباحث من أوضاع و أطوار و معالم في الطريق . فهو في القرون الثلاثة الأخيرة يجد المصادر ألمانية و انكليزية و ايطالية و فرنسية . فاذا مرّ الى القرون الثلاثة السابقة و أزمان شيكسپير و چوسر وجد المصادر الطبية باللغة اللاتينية إما تأليفا بها أو ترجمة إليها من المصادر العربية . و هٰهنا يلفي الأطباء و المكتشفين المسلمين قد تحورت أسماؤهم و القابهم و كناهم تحورا وادعا الى مثل "أڤيسينا" و"آڤيروس" و"أڤنزور" . فاذا انتهى إلى القرون قبل ذلك التأريخ استقر لا محالة في مدارس طب في بريطانيا و البلاد الاوروبية يقرأ أساتيذها و تلاميذها

علوم الطب من مصادرها الاسلامية الأصل باللغة الاسلامية الام - لغة الكتاب و السنة و العلم و الأدب الاسلامي الجميل . فلقد كانت العربية لغة التلقي في مجال الطب و غيره من العلوم ، كما كانت قبل ذلك لغة الشعر في الأندلس الزاهية يسّابق إليها في نظم القريض أبناء سيدنا عيسى كابناء سيدنا أحمد - عليهما أفضل الصلاة و أزكى التسليم . نقول إذا صنع الطبيب الباحث و أمثاله في كل علم أمثال الصنيع الذي وصفناه انكشفت لأبناء الامة الوشائج و الاصول بين علم الطب و سائر العلوم و بين الحضارة غابرها و حاضرها ، ثم استنارت في العقول نهضة فكر يرنو الى المستقبل القريب مندفعا إلى بناء حضارة جديدة وصفها شاعر معاصر بقوله :

إنا و قد قرب المطاف لامة
سرت الدجى و تقدمت لنهار

نرجو الحياة كريمة و جديدة
و نصول صول محايد جبّار
لا لليمين إذ اليمين كما ادّعوا
لا لليسار تديّنا ليسار
لسنا نقلدهم فانا امة
وسط أتت بشرائع أبكار
و الوارثون من الجدود خصائصا
منها اجتهاد الرأي و الأنظار
ننشي الطريف على التليد صروحه
متناسق الأرجاء و الأقطار
نبني على النهج الحنيف حضارة
شرقية القسمات و الأطوار
متراكبا في دور حكمتها النُهى
لعجائب الإنتاج و الإثمار
فنريهمُ كيف الحضارة تُبتنى
بيد الهدى و أنامل الأفكار
و بمكرمات ما استقرّ اصولها
في القائمات على أساس هار
و نريهم البانين في ألق الضحى
حنفاء ما عبدوا إله النار

و غدا تسجلنا الصحائف أننا
من بين من مرقوا الى الأقمار .

ذلك مبلغ هذه الجامعات في مجال كل علم او كل نوع من العلم على وجه الخصوص ، أي في مجال الثقافة الخاصة . أما ثقافة عامة للحياة ينهل الطلاب من معينها فيرتوون فيُقبِلون على مسالك الحياة و في وجوههم و عقولهم رواء و نضارة هي طابع هذه الثقافة العامة الفريدة ، أما هذه فلسنا نجدها في تلكم الجامعات ، لا في النظر و لا في التطبيق. فان وجدت فلعلها كوجود العنقاء إسما دون مسمى .

و ليت شعري هل استبقَوا لكلمة الثقافة ذاتها من معنى متبيّن المفهوم و المدلول ؟! أيّ شيء هي الثقافة في حدّ ذاتها إن اردناها في قابلات الأيام ؟ الثقافة - أيها الناس - راجعة في أصل معناها إلى الاتقان و الاستقامة ، راجعة الى ما بلّغه

خاتم النبيين - صلى اللّه و سلم عليه و عليهم اجمعين - بقوله : "إن اللّه يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقن عمله " .

و هذا هو القول الحق . و كل حياة الانسان عمل . و الفكر و النظر و الذكرى من ضروب العمل . و ان الانسان ليتميز بأن له أعمال جوارح و اعمال قلوب . لهذا خلقه رب العالمين - جلّت قدرته - وبهذا كرّمه و فضّله : "و لقد كرمنا بني آدم و حملناهم في البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ".

فالثقافة ، أيتهما كانت الخاصة أم العامة و ايّامّا كان مجالها من علم او فن إذا كانت خاصة ، تتقوّم بثلاثة عناصر متمايزة في وجودها متحدة في تكوين ما لا قوام لها إلا بها . و هذه الثلاثة هي على وجه الاختزال : صرح من الايمان ، و علم تام في المظان ، و تطبيق باتقان . فالاتقان في

التطبيق لا يتأتى ما لم يردفه علم في جانب النظر ، و الرديفان معا لا يستقيمان و لا يتمان ما لم يثبتا على صرح متين من الايمان. أما الانسان صاحب الشان : فإلاّ يؤمن بأمر لا يحط به علما ؛ و إلاّ يحط به علما لا يتقنه في العمل و التطبيق . فان حاول التطبيق دونما علم بطّأ به العمل و ما أتم . و ان علم غير مؤمن ضلّ و أضلّ و أهلك و هلك مثلما تهلك الحضارات . "فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا باللّه وحده و كفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنت اللّه التي قد خلت في عباده و خسر هنالك الكافرون". فالثقافة - ايها الرفيق القارئ - ايمان و عرفان و اتقان .

الملحقات

الملحق الاول : المتعلق باواخر الفصل الخامس :

أ- أصل كتاب مجلس الجامعة للتبليغ بمنح مرتبة الدكتوراه .

ب- ترجمة الكتاب الى العربية .

ج- نص تقرير الاستاذ المشرف النهائي .

د- ترجمة التقرير الى العربية.

الملحق الثاني : المتعلق باواخر الفصل السادس:

أ- نص القسم الثاني من المقدمة الضافية لرسالة الدكتوراه .

ب- ترجمة القسم الثاني من المقدمة الى العربية .

الملحق الأول
-أ-

UNIVERSITY OF LONDON

SENATE HOUSE, W.C.1



TELEPHONE: MUSEUM 8000 TELEGRAMS: UNIVERSITY, LONDON

28th September, 1959.

Dear Sir,

I have the honour to inform you that on 25th September, 1959, the Vice-Chancellor, acting on behalf of the Senate, conferred upon you the Degree of Ph.D. in the Faculty of Laws (Laws) as an Internal Student.

I am also to inform you that the Examiners have reported that your thesis is suitable for publication as submitted.

Yours faithfully,

James Henderson

Academic Registrar.

Abdulla Mustapha Naqeshbandi, Esq., Ph.D.,
Morshead Mansions,
Morshead Road,
London,

الملحق الاول
- ب -

جامعة لندن

مقر مجلس الجامعة

٢٨ سبتمبر ١٩٥٩

سيدي العزيز ،

أتشرف بأن اعلمكم بان نائب رئيس الجامعة ، منتدبا عن مجلس الجامعة بقراره ، قد منحكم في الخامس و العشرين من سبتيمبر ١٩٥٩ شهادة "بي ايج دي" [دكتوراه] من كلية القانون (في القانون المدني) بوصفكم طالبا داخليا .

و ينبغي عليّ أيضا أن اعلمكم بان الممتحنين قد بينوا في تقريرهم أن "رسالتكم" لائقة للطبع و النشر كما قدمت .

المخلص

مسجل الجامعة العام

الى : الدكتور عبدالله مصطفى
النقشبندي المحترم ،
موريسهيد مانشنز ،
موريسهيد رود ، لندن .

الملحق الاول - ج -

UNIVERSITY OF LONDON, W.C.1.

TELEPHONE: LANGHAM 9021-8.

JNDA/FMF/90C

4th November, 1959.

TO WHOM IT MAY CONCERN

Mr A. Naqeshbandi has worked in London under my supervisior for a period of some five years. When he came here his knowledge of English was by no means good, but he immediately applied himself to remedy this in a most wholehearted way. He also applied himself with equal enthusiasm to master the techniques of modern research.

He has now completed his course of study and has obtained the degree of Ph.D. in the Faculty of Law.

Mr Naqeshbandi's thesis on the development of the doctrine of consensus in Islamic and Roman legal theory is an excellent piece of work. He has not only made a thorough and painstaking investigation of the early texts but has proved his ability to apply modern techniques in the field of legal theory. His thesis includes a comparative study of the doctrine of consensus in Roman and Islamic jurisprudence.

I consider Mr Naqeshbandi a man of mature intellectual ability who is excellently qualified for an academic appointment I believe that he would maintain thorough academic standards and at the same time awaken the interest and enthusiasm of his students. I can recommend him most warmly.

Director of the Institute of
Advanced Legal Studies

الملحق الأول

- د -

جامعة لندن

٤ نوفيمبر ١٩٥٩

الى من يهمه الامر ،

درس السيد عبدالله النقشبندي هنا في لندن تحت إشرافي نحوا من خمس سنوات . وعندما حل هنا لم تكن معرفته باللغة الانكليزية تمت إلى الجودة بصلة لكنه بادر إلى معالجة ذلك معالجة غاية في الجد. وكذلك اجتهد بمثل تلك الهمة للهيمنة على طرائق البحث الحديثة .

والآن فقد أكمل مراحل دراسته ، ونال شهادة "پي ايچ دي" [دكتوراه] في كلية القانون [الحقوق] .

رسالة السيد النقشبندي في نشأة أصل الاجماع في النظرية العامة للقانون الاسلامي

منه و الروماني، هي حقا عمل علمي ممتاز. فانه لم يكتف بتدقيق النصوص و المصادر القديمة تدقيقا مضنيا دقيقا و حسب ، بل اثبت مقدرته على تطبيق الطرائق الحديثة في ميدان النظرية العامة للقانون. و ان رسالته مشتملة على دراسة مقارنة لمبدأ الاجماع في الفقهين الروماني و الاسلامي .

إني اعدّ السيد النقشبندي رجلا ذا مقدرة فكرية كاملة قد تأهل تأهلا ممتازا لمنصب جامعي. و اعتقد أنه سيستبقي المستويات الجامعية المتقنة ، و يوقظ في الوقت ذاته همم طلابه و اهتمامهم .

الاستاذ المدير العام

لمعهد الدراسات القانونية العليا.

الملحق الثاني

- أ -

نص القسم الثاني من المقدمة الضافية .

II.

This monograph, moreover, has, in all probability, fulfilled all the requirements of London University for a successful Ph.D. law thesis; and is therefore most likely to satisfy the examiners who will peruse it. But it has hardly satisfied, if not to say the conscience of its author, then, in all certainty, his intellectual desire for a complete freedom of thought and of unbiassed research. This might seem a little strange to those who think that absolute academic liberty is the first prerequisite always to be found in a leading university of a democratic country. But

Lord Bertrand Russell, the famous English philosopher and free-thinker, has already told the world of the deplorable tendencies to minimise academic freedom in the Western democracies and of the threat to this form of liberty from the two sources of the plutocracy and the churches, "which endeavour between them to establish an economic and a theological censorship". (See his Why I Am Not a Christian, London, 1957, pp. 133 *et seq.*) It is not my aim, however, to reiterate or elaborate upon the findings of Lord Russell in this regard. All it must be declared here is that the present work includes many a fallacious conclusion which the author has been destined to uphold. But why, it must be asked, should he have set himself to such an unpleasant task?

The tale is too long to be told in a preface such as this. May it, then, suffice to point out that, when things became apparent to him, it was only too late. The student had a scholarship grant which had forced him into a contract with the Iraqi Ministry of Education involving the equivalent of some three thousand sterling pounds to be repaid to the Iraqi Treasury in the event of his failure to obtain the Degree specified in

the text of the contract, a Ph.D. laws from the University of London. The debtor, already only scraping a living, had no means of repaying even one tenth of that sum. This is, to say nothing of the wrath which he knew he would incur in his own country, where failure to obtain the Degree could - as had been the case with some others before him - but be attributed to the impossibility **for this student to attain** to the intellectual standards required of a doctor of law.

Whereas the consolidated regulations of the University prescribe that a Ph.D. thesis "must form a distinct contribution to the knowledge of the subject and afford evidence of originality, shown either by the discovery of new facts or by the exercise of independent critical power", the supervisors often make it incumbent upon their pupils never to transcend the boundaries of the school of thought prevailing in the faculty concerned. It is not always easy to make these two ends meet. But a candidate, if he is at all to succeed, will have to satisfy his supervisor first; and in such circumstances, as a colleague of mine once put it, "one begs rather than

gets a doctorate". In the case of the present research, Roman and Islamic legal systems were to be dealt with. As far as the former system was concerned, the task of enquiry proved a little less cumbersome. For even if the student found it necessary at times to deviate from the orthodox path, this would have been in favour of the findings of F. Schulz, whose studies in Roman legal science, albeit not yet fully conceded, had already shown him to be yielding pride of place to none in pro-Romanism. Therefore any such tresspasses could have easily been forgiven, since it could have rendered no disservice to the legal and spiritual heritage of Rome. This is no serious transcendence or deviation.

In regard to the latter legal system, however, things have been quite different - the approved school of thought in the field of Islamic legal science being that fathered by Professor Joseph Schacht and given an authoritative exposition in his Origins of Muhammadan Jurisprudence. This particular work is so designed as to complicate and confuse rather than disentangle and explain the major questions of its theme; but this is achieved in a way that only a past-master of the subject could bring about.

Intellectually, no doubt, the author proves to be an outstanding scholar. But, against the civilization with whose legal system he has been concerning himself, he is so much prejudiced so as to allow himself often to twist his facts in order to adjust them to certain desired conclusions with which he has already been preoccupied. And the scholar has an absolute genius for clothing unfounded and ugly notions in some beautiful garments of seemingly methodical reasoning. There is, of course, nothing to be regretted in the fact that the aforesaid scholar has chosen to take an approach which might seem to others to be unscientific; nor is it a bad thing either that some of his arguments may be controverted by other students of legal theory or regarded as untenable. What is regretable is that, instead of enjoying the liberty to accept, modify or reject ideas as they would appear to him in the light of an objective and impartial enquiry, the present writer had no alternative to the task of endeavouring to sustain Professor Schacht's conclusions by way of arranging further evidence in support thereof. It has been thus that, by an irony of fate, it lay to the present author to bolster those

unhealthy conclusions by unhistorical history and question-begging episodes.

الملحق الثاني

"ب : الترجمة"

و ان هذا الكتاب قد استوفى على وجه اليقين الشروط و الاوصاف كلها التي توجبها جامعة لندن في رسالة ناجحة لمرتبة دكتور في القانون ؛ و إنه بذلك لحري بأن يرضي الممتحنين الذين سيقرأونه قراءة تدقيق. بيد أنه كتاب ليس من شأنه أن يرضي ضمير مؤلفه و لا ، على وجه اليقين ، نزوعه العقلي إلى الحرية الفكرية التامة و البحث العلمي النزيه. هذه حقيقة قد تبدو على شئ من الغرابة لاولئك الذين يحسبون ان الحرية الجامعية التامة هي المقومة الاولى المتوفرة دوما في أيما جامعة رائدة لبلد "دمقراطي". لكن " اللورد بيرتراند رَسْلْ "، الفيلسوف و المفكر الانكليزي الشهير، قد سبق أن كشف للناس في عالمنا عن " النوازع المؤسفة الجادة في كبت (تقتير) الحرية الجامعية في بلدان الغرب الدمقراطية و عن الهلكة الداهمة

هذا الصنف من الحرية والآنية من منبعيها الاثنين، ارباب الهيمنة المالية وارباب الكنائس، المتعاونين على إقامة حجر اقتصادي ولاهوتي في الجامعات». (راجع كتابه المسمى "لماذا لست أنا بمسيحي"، لندن ١٩٥٧، الصفحات ١٣٣ وما بعدها). وما من غرضي هنا أن اعيد ولا أن أشرح الحقائق كلها التي توصل اليها اللورد رَسْلْ في هذا الباب. أما الذي يجب التصريح به هنا فهو أن الكتاب الذي بين أيدينا يشتمل على كثير من استنتاجات مغشوشة كتب على المؤلف أن يحتمل وزر الالتزام بها في الكتاب. على أنه ينبغي التساؤل عما أرغم المؤلف على أن يتولى مثل هذه المهمة الممقوتة.

وهذه قصة هي أطول من أن تقصّ في مقدمة مثل هذه. فليكفنا التصريح إذن بأن حقائق الامور إذ تبينت له فإنما تبينت بعد فوات الاوان. فالمؤلف الطالب كان قد ضم الى البعثة العلمية واضطره ذلك

الى الالتزام لوزارة المعارف العراقية بعقد ألزمه باعادة ما يعادل ثلاثة آلاف " جنيه سترليني" [بقيمة عصره !] إلى خزانة الدولة حالما يخفق في الحصول على الشهادة المعينة في صلب العقد - شهادة الدكتوراه من كلية القانون في جامعة لندن على وجه التحديد. و الملتزم المدين، وقد كان من ذي قبل يتعيش في شظف، لم يكن يجد أي وسيلة لاعادة معشار ذلك المبلغ الكبير. هذا إن لم نعر إهتماما إلى لعنات الناس قد علم هو أنه سيتجرعها في وطنه حيث يعدون الاخفاق عن نيل الشهادة راجعا لا محالة الى استحالة بلوغ الطالب الراسب ذاك المبلغ العلمي الواجب توفره لدى دكتور في القانون.

و إذ تأمر أحكام النظم المتقررة للجامعة بان رسالة الدكتوراه "يجب أن تضيف الى العلم في موضوعها اضافة متميزة و أن تنم عن معالم الأصالة في البحث إما باكتشاف حقائق جديدة أو باجالة ملكة النقد المستقل"، فان المشرفين على الرسائل

يحرّمون على طلابهم في الوقت ذاته الخروج عن تخوم المدرسة الفكرية السائدة في الكلية المنتمى اليها. و ليس الجمع مما يتسنى دائما بين هاتين الغايتين المتباعدتين. غير أن المتقدم (لنيل الشهادة) يتحتم عليه، إذا كان ذا مطمح في شيء من نجاح، أن يرضي الاستاذ المشرف عليه قبل كل شيء؛ و المرء في مضايق أحوال كهذه - على ما عبر به ذات مرة زميل من زملائي - ينقلب يستجدي "شهادة دكتوراه" مكان أن ينهض ينالها. و البحوث في كتابنا هذا انصبت على المجموعتين القانونيتين الرومانية و الاسلامية. فعلى قدر تعلق الأمر باولى المجموعتين جرت متاعب البحث العلمي أخف قليلا و أهون. ذلك لأن الباحث إذا ما صادف أن رأى حقائق العلم تضطره الى الحيدان عن الطريق المعتد بها فان هذا انما كان يحدث في مظان التأييد لما انتهى اليه "ف. بشلز" - هذا الذي اثبتت بحوثه في تأريخ الفقه الروماني، على الرغم من أنها لم ينقد اليها بعد تمام الانقياد، أنه لم يدع شأوا لمستبق في

ميدان الولاء للفقه الروماني . و من ثم فان أيّ تجاوز بمثل هذا الحيدان كان من شأنه أن يغتفر، لأن التجاوز من هذا القبيل ليس يمكن أن يحدث أيّما اساءة خدمة لتراث "روما" القانوني و الروحاني .

أما في حق المجموعة القانونية الثانية فان الحال كانت مختلفة كل الاختلاف، حيث المدرسة الفكرية المتقبلة المنصاع لها إنما هي تلك التي تبناها "پروفيسر جوزيف شاخت" و استعرضت مقوماتها بصيغتها النافذة في كتابه المسمى "ذ اوريجينز اوف موهاميدان جوريسپرودنس" . و هذا الكتاب على وجه التخصيص قد رتب لأجل أن يعقد و يشوش المسائل الكبرى المتعلقة بموضوع بحثه، لا أن يشرحها و يحلها؛ بيد أن هذه الغاية قد حققت في الكتاب على طريقة لا يستطيع الاتيان بها إلا متضلع في هذا الباب . و لا شك في أن المؤلف، من حيث مداركه الفكرية، باحث مرموق . لكنه متحيز تحيز كراهية ضد الحضارة

التي شغل نفسه بدراسة مجموعتها القانونية الى حد انه يحرّف الحقائق التي يجدها بين يديه لكيما يوائم بينها و بين نتائج مرادة له و معينة في فكره من ذي قبل ، وهو - بعد هذا - نابغة حقا في إلباس آراء قبيحة واهية لبوسا جميلا من مظهر استدلال منهجي . ليس من شيئ يؤسف عليه بطبيعة الحال في واقع أن الباحث المذكور قد اختار لنفسه اتخاذ منحى في البحث ربما لاح لآخرين أنه غير علمي؛ و ليس بأمر سيّئ أيضا أن يكون من استدلالاته ما ينقضه متخصصون آخرون في علم القانون أو ما يعدّ هزيلا لا يدافع عنه . أما الذي يؤسف عليه فهو أن كاتب هذه " الرسالة "، و هو محروم يومئذ من الاستمتاع بحرية أن يقبل الآراء أو يردها او يعدلها وفق ما تجلو له في ضياء بحث علمي واقعي نزيه ، لم يجد بديلا عما اكره عليه من مهمة السعي المضني في تأييد آراء الاستاذ " شاخت " بإعداد مزيد من الشواهد لنصرتها، و كذلك

كان من سخرية الأقدار أن تَحتَّم على هذا المؤلف أن يسند تلكم الآراء المريضة بادلة ملفقة و نبذ منبترات مفتقرات إلى اثبات .

ع . ن

كلير كوليج كمبرج .
سبتمبر ١٩٥٨ .

الفهرس المفصل

الفصل الأول

"الجامعة حرم آمن"

١٧ - ٢١

الصفحة

الفصل الثاني

أجواء تأسيس الجامعة

٢٣ - ٢٩

الفصل الثالث

دواعي الحرية الجامعية

(٣١ - ٥٩)

الفصل الرابع

مستغرب في الشرق

١٧ - ١١٧

الفصل الخامس

شرقي في الغرب

، ١١٩ - ٢٠٢

الفصل السادس

رسالة دكتوراه

الفصل السابع

جامعات في ضياع

٢٩١ - ٣١٧

الملحقات

بعض مؤلفات الكاتب

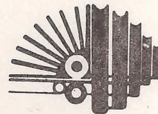
المنشورة

١ ـ الرقابة المالية العامة .
٢ ـ علم اصول القانون .
٣ ـ الحرية الجامعية .
٤ ـ بحوث متفرقة .
(في الدوريات) .

المخطوطة

١ - الحق والقانون .
٢ - الرفيق الأعلى .
٣ - المقتطف في علم الوضع .
٤ - المقتطف في علم الصوت .
٥ - فصول في الأطوار الاقتصادية وأضاع مالية ومحاسبية في الجمهورية العراقية .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٠٣ لسنة ١٩٨٩

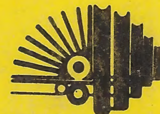


طبع بمطابع التعليم العالي

المؤلف والكتاب

- عبدالله بن مصطفى بن أبي بكر بن محمد بن عبدالله .
- هرشمي من اسرة علمية عريقة في العراق .
- درس علوم القانون والاقتصاد .
- حاز مرتبة الدكتوراه من كلية القانون (الحقوق) بجامعة لندن .
- درّس مدة استاذا محاضرا في جامعة بغداد ، واستاذا دائما في الجامعة المستنصرية .
- أسس « ديوان الرقابة المالية » ، والدراسة العليا للمحاسبة القانونية بجامعة بغداد .
- تولى في الخدمة العامة الأعمال التالية : –
  عضو مجلس ادارة البنك المركزي . عضو مجلس الخدمة العامة . مراقب الحسابات العام .
- وزير المالية . وزير الأقتصاد . رئيس مجلس الرقابة المالية .

هذا كتاب يقص عليك أحسن القصص من واقع الحياة . يريك الطائر الحبيب ، حمامة الحرية الجامعية ، كيف مسخت في مغرب الشمس فصُيِّرت العنقاء لها اسم وليس لها مسمى . ويريك غربان الاستعمار ، ذلك الاستخراب الذي نعتوه نعت الأضداد ، كيف استطالت مناقيرها من طباع أقوام لها صور الانسان وشراهة المفترسات من الحيوان .



طبع بمطابع التعليم العالي

السعر ٤ دنانير

الحرية الجامعية

قصص من واقع الحياة

الدكتور عبدالله مصطفى

١٩٨٩